الفصل الأول
المرأة في القرآن الكريم

لقد ورد في القرآن الكريم نماذج كثيرة من النساء ، ومن هؤلاء النساء من كُنَّ صالحات ، فأثنى عليهنّ الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم ، ومن النساء أيضاً من كُنَّ يتّصفنَ بالسوء والكفر ، وقد ألمح إليهنّ القرآن الكريم أيضاً ، ومازالت هٰذه الأمثلة من النساء التي أثبتها الله في كتابه العزيز نماذج وعِبَراً لكلّ نساء الأرض ، فأما الصالحات القانتات الذاكرات فمثال ناصع البياض شديد القداسة تتلمذ على نهجه النساء المسلمات المؤمنات الصالحات .

وأما النموذج الآخر من النساء السيّئات فهو نموذج لكلّ امرأة سيّئة فاسدة فاجرة ، فهو مثال ثابت في القرآن؛ ليكون عبرة لهؤلاء النسوة ، وحضّاً لهنّ للعودة إلى الصراط المستقيم ، والتأسّي بأشراف النساء ، ولعلّ ذكر المرأة في القرآن في مواطن كثيرة يُعدُّ احتراماً للمرأة وتكريماً لها ، وكيف لا يكون تكريماً لها وقد ذُكِرَت في كلام الله عزّ وجلّ وفي قرآنه وهو أقدس الأقداس على وجه الأرض ، الذي تعهّده الله بحفظه ورعايته وصيانته من التحريف والتبديل ، وهو المُتعبّد بتلاوته الذي يُتلى آناء الليل وأطراف النهار إلى أن يُشاء الله أمراً كان مفعولاً ، وذلك عند إرسال الريح التي تقبض روح كلّ مؤمن ولو كان في جوف جبل في بطن كهف ، وإنها لتقبض كل من كان في قلبه مثقال ذرّة من إيمان ، عند ذلك يكون أمر الساعة قد حلّ على رؤوس الكافرين؛ لأنّ القيامة لا تقوم إلاّ على شرار الناس .

ويشمل هذا الفصل المباحث الآتية :

المبحث الأول : حواء رضي الله عنها .

المبحث الثاني : صراع ابني آدم على من رغبا في نكاحها .

المبحث الثالث : هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام .

المبحث الرابع : أيوب عليه السلام وامرأته المؤمنة الصابرة .

المبحث الخامس : الملكة بلقيس .

المبحث السادس : أم موسى عليه الصلاة والسلام وأخته .

المبحث السابع : بنات شعيب عليه السلام .

المبحث الثامن : آسية زوجة فرعون .

المبحث التاسع : مريم عليها السلام .

المبحث العاشر : مطالبة زوجات رسول الله ﷺ بزيادة النفقة .

المبحث الحادي عشر : عائشة وحفصة رضي الله عنهما .

المبحث الثاني عشر : خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها .

المبحث الثالث عشر : امرأة لوط ونوح عليهما السلام .

المبحث الرابع عشر : امرأة العزيز تراود فتاها .

المبحث الخامس عشر : أم لهب لعنة الله عليها .

* * *

المبحث الأول
حوّاء رضي الله عنها

قال الله عـزّ وجلّ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٦].

لقد جاء في التفاسير أنَّ الله عزّ وجلّ خلق آدم عليه الصلاة والسلام وأمره أن يسكن الجنّة ويتمتّع فيها ويأكل من ثمراتها ويتقلّب في نعيمها حيث شاء، وحذّره أن يقرب هـٰذه الشجرة، وفي بعض الأيام كان آدم عليه الصلاة والسلام نائماً في الجنّة، وعندما استيقظ وجد (حوّاء) عند رأسه فقال: من أنت؟ فقالت: أنا امرأة، فقال: ولِمَ أنت؟ قالت: قد خلقني الله لأكون لك سكناً، فأرادت الملائكة أن تختبر علم آدم عليه الصلاة والسلام فقالت له: ما اسمها يا آدم؟ قال: اسمها حوّاء، قالوا: ولمَ حوّاء؟ قال: لأنها خُلِقَت من شيء حيّ[1].

وقد أمر الله عزَّ وجلَّ آدم وزوجته حوّاء بألا يقربا شجرة من شجر الجنّة فيكونا من الظالمين، وبطبيعة الحال فإنَّ الأمر كان موجّهاً لآدم وحوّاء على السواء، وليس كما قالت اليهود: إنَّ حوّاء هي التي أكلت من الشجرة وإنّ آدم عليه الصلاة والسلام قد وقع نتيجة لجريرتها وذنبها، بل إنَّ الأمر كان موجّهاً إليهما كليهما وقاما كلاهما بالأكل من هـٰذه الشجرة.

وقد اختلف الناس في قضية الشجرة فقال البعض: إنها شجرة الكرمة، وقال آخرون: بل هي البُرّ، وقيل: هي السنبل، وقيل: هي التين، وهـٰذا

---

(١) تفسير الطبري: ج١ ـ ص: ٥٤.

الأمر من الأمور الثانوية التي لا يُفيد العالم علمها ولا يضرّ الجاهل جهله عنها ، والمهمّ في القضية أنهما أكلا من هـٰذه الشجرة ، وكما تقدّم في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي أن الشيطان وسوس لآدم وحوّاء على السواء ، ولم يقل عزّ وجلّ فأزلّها الشيطان؛ من أجل أن يُنسب الذنب إلى حوّاء حصراً ، بل قال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ فالوسوسة كانت إليهما جميعاً.

وقد تكلّم الناس في هـٰذه الجنّة فقال البعض: إنها الجنّة الحقيقية التي في السماء ، وهـٰذا رأي الجمهور وعلماء الأمّة الإسلامية ، وذهب المعتزلة والقدرية إلى أنها جنّة في الأرض[1] ، واحتجّ المعتزلة والقدرية أنّ الشيطان قد طُردَ من الجنّة فكيف يدخلها؟.

وأجاب الجمهور على ذلك بأنه قد طُرِدَ منها فلا يدخلها على سبيل الإكرام ، وإنما يدخلها على سبيل الذلّ والتلصّص ، وقيل: إنه دخل في جوف حيّة ، وقيل: لعلّه وسوس لهما وهما على باب الجنّة وكان (إبليس) لعنة الله عليه خارج الجنّة ، فقال لهما: إنّ الله ما منعكما من الاقتراب من هـٰذه الشجرة إلاّ كي لا تكونا من المُخلّدين ، وبعد أن وسوس لهما الشيطان اقتربا من الشجرة وأكلا من ثمرها ، فأبدى الله عوراتهما التي كانت مخفيّة عنهما وأخذا يستران عوراتهما من أوراق الجنّة.

ويُروى أنّ الله عزّ وجلّ قال لآدم عليه السلام: ألم أنهكَ عن الشجرة؟ ، قال: نعم يا ربّ ، قال: ولِمَ أكلت منها؟ ، قال: اللهمّ ، إنّ إبليس أقسم بك أنه صادق ، وما ظننت أنّ مخلوقاً من مخلوقاتك يتجرّأ أن يُقسم بك وهو كاذب[2]!.

وعند وقوع هـٰذه المعصية المقدّرة في قضاء الله وقدره أنزل الله آدم عليه السلام وزوجته حوّاء رضي الله عنها إلى الأرض ، وتوسّل آدم عليه السلام إلى

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق: ص: ١٥٦ وما بعدها.

ربّه فاستغفره فغفر له الله ، قال تعالى : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

ومن خلال هـٰذه الآية يتبيّن أنَّ الدعاء توجّه إلى الله من آدم عليه الصلاة والسلام وهو يستغفر عنه وعن حوّاء ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ فالذنب شمل آدم وحوّاء على السواء ، وليس كما قال أهل الكتاب .

لعلّك تعلم أنَّ اليهود يحتقرون المرأة ؛ لاعتقادهم بأنها هي السبب الأساسي في إنزال آدم عليه السلام من الجنَّة ، وهـٰذا افتراء على الله ؛ لأنَّ الله لا يُعاقب نفساً بجريرة نفس أخرى ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، فقد اشتركا في الذنب . ولعلّك تعلم أنَّ النصارى لا يُزوّجون رهبانهم تسامياً عن الاحتكاك بالمرأة والالتصاق بها ؛ لأنهم يُحمّلونها مسؤولية هبوط آدم عليه الصلاة والسلام من الجنَّة ، وذلك أيضاً ظلم للمرأة وافتراء عليها .

فرضي الله عن آدم وحوّاء عليهما الصلاة والسلام ، فقد أذنبا سويّة واستغفرا وغفر الله لهما زلّتهما ، ولعلّنا نستنبط من ذلك أنَّ المرأة كالرجل تماماً تُخطئ وتُصيب ، فلا يُنسب الخطأ إلى المرأة دائماً ويُرفع عن كاهل الرجل ، فإنهما خُلِقا من نفس واحدة ، وفي هـٰذه الآيات تبرئة لحوّاء من إلقاء مسؤولية هبوط البشر على الأرض على كاهلها وحدها ، وإشراك آدم عليه الصلاة والسلام معها ، وهـٰذا من الأمور التي وضّحها القرآن الكريم وأظهر فيها تحريف التوراة والإنجيل في هـٰذا الصدد .

* * *

المبحث الثاني
صراع ابني آدم على من رغبا في نكاحها

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

وإذا رجعت إلى سبب هـٰذا الشجار الذي دار بين (قابيل وهابيل)، وهـٰذه الفتنة العظيمة وسفك أوّل دم على سطح الأرض رأيت أنّ السبب هو صراعهم على امرأة جميلة.

والقصّة أنَّ حوّاء عليها السلام كانت تلد في كلّ بطن توأمين ذكراً وأنثى، وكانت الشريعة في تلك الأثناء أن يتزوّج الأخ أخته؛ لأنهم أصول البشر كما تعلم، وقد حرّم الله على الأخ أن يتزوّج أخته التي نزلت معه في البطن نفسه، وكان قد وُلِدَ مع (قابيل) فتاة جميلة اسمها (إقليميا) ووُلِدَت مع (هابيل) أختٌ غير جميلة اسمها (لولوذيا)[1]، فرغب قابيل في أن يتزوّج من الفتاة الجميلة، وقال: إنها أختي نزلت معي في بطن واحد وأنا أحقّ بها، فقال له آدم عليه الصلاة والسلام: إنّ هـٰذا محرّم ولا يجوز لك ذلك، واشتدّ الخلاف وكان هابيل يهواها، وهو أحق بها، وعندما اشتدّ الخلاف أمرهم آدم عليه السلام أن يُقرّبا قرباناً إلى الله عز وجل، وكانت علامة تقبّل القربان أن تأتي نار فتحمله وتصعد به إلى السماء، وهـٰذا دليل على قبول القربان، فقدّم قابيل وكان أهل زرع شيئاً من السنابل، ووجد سنبلة جيدة مليئة ففركها بيده والتهمها، وكانت السنابل التي قدّمها قابيل من أردئ الزرع، وقدّم هابيل كبشاً كبيراً عظيماً حسناً وكان أهل رعي، فتقبّل الله قربان هابيل ولم يتقبّل قربان قابيل، فاغتاظ قابيل

---

(١) تفسير القرطبي: ج٦ ـ ص: ٨٨.

غيظاً شديداً وقال: كيف أمشي وإيّاك على الأرض ويعلم الناس أنك خير منّي، فتجنّبه هابيل وأخذ يرعى أغنامه في رؤوس الجبال، وعزم قابيل على قتله، قال تعالى في ذلك: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

فكان هابيل أقوى منه وأشدّ، ولكنه أورع وأتقى لله عزّ وجلّ، ولا يُريد أن يحمل إثم قتل أخيه، وأصرّ قابيل على قتل أخيه، فانكبّ عليه ـ كما رُوِيَ ـ يعضّه ويضغطه بيديه ولم يكن يعرف كيفية القتل حينئذ، فأتاه الشيطان فقال: أتريد أن تقتله؟ قال: نعم، قال: أمسك هٰذه الصخرة واطرحها على رأسه تقتله، فأمسك الصخرة فطرحها على رأس أخيه فقتله، وكان أوّل من قتل من بني آدم على سطح الأرض[1].

وهناك تفاصيل أخرى ليس المقام لذكرها هنا، ولكن يُستنبط من ذلك أنّ المرأة كانت منذ أن خلق الله الأرض وما عليها، ومازالت إلى أن يرث الله الأرض وما عليها محوراً ومركزاً لصراع الناس حولها، ولا سيّما في حال كونها امرأة جميلة حسناء رقيقة، وهٰذا أمر ظاهر، وقصص الحياة مليئة بذلك، والأيام تُبرهن كل يوم على هٰذه الحقيقة، وآثرت أن أذكر هٰذه القصّة مع عدم تصريح القرآن باسم هٰذه المرأة؛ لأكون قد وفّيت الموضوع حقّه، والمعنى المُستنبط من ذلك أنّ المرأة الجميلة محطّ الصراعات من أجلها تُسفك الدماء وتُغتصب الأموال، وليس ذلك ذنباً متعلّقاً بالمرأة لكونها قد خلقها الله جميلة أو مرغوباً بها، وإنما ذلك نتيجة لطمع الإنسان وضعفه ورغبته في الاستئثار بكل شيء.

* * *

(١) المرجع السابق.

المبحث الثالث

هاجَر زوجة إبراهيم عليه السلام

عندما غادر إبراهيم عليه الصلاة والسلام مصر مع زوجته (سارة) بعد أن أهدى ملك مصر لسارة (هاجر) عاد إلى فلسطين واستقرّ فيها ، وأخذت سارة تُلاحظ على إبراهيم عليه الصلاة والسلام حاجته إلى النسل ورغبته في الولد ، وعلمت أنها عاقر لا تُنجب ، وأرادت هـٰذه الزوجة الوفيّة الطاهرة أن تُسرّي عن زوجها إبراهيم ، فأهدت له (هاجر) وقالت له: ادخل بها فلعلّ الله أن يَرزقك ما تُحبّ وتشتهي ، وتمّ الأمر وأنجبت هاجَر (إسماعيل) عليه الصلاة والسلام ، وسُرَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام سروراً كبيراً ، وبدأت سارة تشعر بنوع من الغيرة مما جرى ، فلم تستطع أن تنظر إلى الغلام ولم تستطع أن تسمع بصوت هاجَر ، وكأنها ندمت على تشجيعها إبراهيم عليه الصلاة والسلام على الزواج من هاجر رضي الله عنهم جميعاً.

وتحوّلت حياتها إلى كآبة مستمرة وحسرات وعبرات ، وطلبت من زوجها أن يُبعد هاجر وإسماعيل عن مرأى نظرها ومسمع أذنيها ، وأوحى الله عزّ وجلّ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يسير بهاجَر وابنه إسماعيل بعيداً عن فلسطين ، فركب دابّته وأخذ زوجته وابنه وسار إلى أن حطّت به الأقدار في وادٍ غير ذي زرعٍ ، مكان الكعبة المُشرّفة التي لم تكن قد بُنِيَت بعد ، فأنزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام زوجته هاجَر وابنه إسماعيل ولم يكن معهما إلاّ القليل من الزاد والماء ، ثمّ ولّى ظهره عنهما وانصرف ، فلحِقَت به هاجَر رضي الله عنها وأمسكت بطرف ثوبه وقالت: كيف تدعنا في هـٰذا الوادي الذي لا ماء فيه ولا زرع ولا حتّى بشر؟! فلم يُجبها واستمرّ في سيره ، ثمّ قالت له هـٰذه

الطاهرة المؤمنة: آلله أمرك بذلك؟ فقال: نعم، فقالت: إذن اذهب فإنّ الله لن يُضيّعنا.

من خلال هٰذا المشهد يتبدّى لك عظمة هٰذه المرأة ومدى رسوخ جذور الإيمان في قلبها، فإنها في قلب صحراء مقفرة لا شيء فيها إلاّ الرمل، لا تأمن فيها على نفسها من السباع والذئاب والوحوش، لا تجد ماءً ولا طعاماً، ولا تجد بشراً ولا ظلاً يظلّها من حرارة الشمس الملتهبة، ومع كلّ ذلك عندما علمت أنّ الله أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك قالت: اذهب، وهي مطمئنّة، فإنّ الله عزّ وجلّ ـ الذي خلقنا والذي أمرك بأن تصنع ذلك ـ لن يُضيّعنا.

وعندما ابتعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام عنهم سجد إلى ربّه ورفع يديه متبتّلاً لخالقه يدعوه قائلاً: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ونفد الماء ونفد الزّاد ولم تجد في ثدييها ما يُرضع الغلام ويسدّ رمقه، وأخذ يبكي ويصيح صياحاً شديداً، وأخذ كبد هاجَر رضي الله عنها يتقطّع ألماً على وليدها، فخرجت تسعى فتوجّهت نحو الصفا فصعدت إليه لعلّها أن ترى أحداً يُغيثها، فلم ترَ أحداً، فنزلت وتوجّهت إلى المروة ثم عادت إلى الصفا فالمروة سبعة أشواط، وقد قطّع قلبها صياح غلامها، وكان إسماعيل عليه الصلاة والسلام يضرب بقدميه الأرض حتّى انفجر من بين قدميه الماء، فانكبّت على الماء تزمّهُ[1] وتقول له: زُم زُم، وشربت من الماء وسقت غلامها، وبذلك حفظها الله وغلامها وهو خير الحافظين[2].

ويُروى أنَّ هاجر عليها السلام سمعت صوتاً فقالت: يا صاحب الصوت، إن كان لديك خير فقدّمه، ونزل جبريل عليه السلام إلى إسماعيل عليه الصلاة

---

(١) زم: قلّص.

(٢) المرجع السابق.

والسلام فضرب الأرض بجناحه فانفجرت ماء زمزم ، ومن هنا سُمِّي هـٰذا الماء بماء زمزم ومازالت تنبع حتّى اليوم ، ثمّ مرّت قبيلة تُدعى بقبيلة (جرهم) فرأت الطيور تُحلّق وتدور في بطن هـٰذا الوادي ، وعهد هـٰذه القبيلة بهـذا الوادي بأنه وادٍ غير ذي زرع لا ماء فيه ولا كلأ ، فأرسلوا واردهم فوجدوا الماء فتهافتوا إلى الماء زرافات ووحداناً بعد أن استأذنوا صاحبة الماء هاجَر عليها السلام فقالوا لها : أتأذنين لنا بالإقامة هنا على هـٰذا الماء؟ .

قالت : نعم على أن يكون الماء لي ، فوافقوا على ذلك واستأنست بهم ونشأ إسماعيل بين أظهرهم .

وترى بذلك استجابة الله عزّ وجلّ لدعوة نبيّه إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن حفظهم ورزقهم وجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، وما كان ربّك ليُضيّع عباده الصالحين[1] .

ولا بدّ من استخلاص المعاني التالية :

١ ـ غيرة النساء التي هي منسوجة في طبائعهنَّ وفطرتهنَّ ، فلا يُمكن أن تتخلَّى المرأة عن الغيرة؛ لأنها شيء قد خلقه الله فيها وفطرها الله عليه ، تعاطفت سارة رضي الله عنها بادئ الأمر مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام ورغبته ، ثمّ بعد ذلك تنازعت في نفسها مكامن الغيرة وتحرّكت الطبيعة الإنسانيّة التي تكون ظاهرة عند النساء بشكل واضح ومميّز ، فطلبت من إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يرحل بهاجَر وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام .

٢ ـ ويبدو لك الصبر العظيم والإيمان الكبير الذي تجسّد في السيدة هاجَر عليها السلام عندما قبلت أن تكون في مكان قاحل لا ماء فيه ولا زرع ، تُحيط الرمال بها من كلّ جانب ، معرّضة للهلاك جوعاً وعطشاً ونهشاً من الوحوش ، وعندما علمت بأن ذلك هو أمر الله تعالى وأنه وحيٌ لرسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أذعنت لذلك واستقرّت واطمأنّت وسكنت ، وهـٰذا من الأمور النادرة التي لا يستطيعها إلاّ القليل من عباد الله المُخلَصين .

---

(١) المرجع السابق : ص : ٥٠ .

٣ ـ والله عزّ وجلّ هو المتفضّل الأوّل والأوحد ، لذا فإنه مَنَّ على سارة بولدها (إسحاق) بعد أن كانت قد استيأست من عقمها وبلغت من الكبر عتيّاً ، فقال تعالى: ﴿ فَصَكَّتْ (١) وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٢٩] فإنّ الله عزَّ وجلَّ يمتحن أحبابه ، ويمتحن أولياءه ، ولكنه يُكرمهم أشدّ ما يكون الإكرام.

* * *

(١) صكَّت: أي ضربت يدها على وجهها على عادة النساء عند التعجب.

المبحث الرابع
أيّوب وامرأته المؤمنة الصابرة

من المعلوم أنَّ أيوب عليه الصلاة والسلام كان ثرياً يتقلّب بِنعَم الله عزّ وجلّ ، فكانت له الأموال والأراضي والأنعام ، ومازال هـٰذا النبي الصالح دائم الذكر لله عزّ وجلّ ساجداً راكعاً مبتهلاً ، وفي هـٰذه الأثناء دار حديث بين الملائكة فقالوا: إنّ أشدّ الناس عبادة على الأرض هو أيوب ، فهو حجّة على الأغنياء من أقرانه ، فلم يُبعده ماله عن طاعة ربّه وشكر نعمائه[1] ، وكان حال أيوب عليه السلام مؤرّقاً لإبليس لعنة الله عليه ، وقد سمع هـٰذا الملعون ما دار بين الملائكة ، فقال لله عزّ وجلّ: إنّما يعبدك هـٰذا نتيجة النِّعَم الكثيرة التي أغدقتها عليه ، فأذَنْ لي وسلّطني على ماله ترى كيف ينقلب على وجهه جاحداً كافراً بك. فأذِنَ الله عزّ وجلّ بذلك ، وتسلّط إبليس وأعوانه على مال أيوب عليه الصلاة والسلام ، فلم يَدَعوا منه شيئاً ، وغدا أيوب خالي الوفاض لا يملك من الدنيا شيئاً ، وظنّ إبليس أنّ إفساد أيوب بعد سلبه ماله غدا مهمّة يسيرة ، فتمثّل له بصورة شيخ فانٍ مجرّب ، وقال له:

يا أيوب ، إنّ الناس يتكلّمون فيما جرى لك ، فمن الناس من يقول: إنّ الله قد انتقم منك فسلب منك مالك ليشمت بك أعداؤك ، ومنهم من يقول: إنما كانت صلاتك وزكاتك غروراً فأراد الله عز وجلّ أن ينتقم منك ويُعرّي فسادك ، ومنهم من يقول: لو كان الله يستحقّ العبادة لاستطاع دفع الشرّ عن عبده أيوب الذي مازال يسجد ويركع له آناء الليل وأطراف النهار!

فأجابه أيوب قائلاً: عاريّة الله استردّها ، ووديعة كانت عندنا فأخذها ،

---

(١) قصص القرآن: لمحمد أحمد جاد المولى ـ ص: ١٧٣ .

نعمنا بها دهراً ، فالحمد لله على ما أنعم ، وسلبنا إيّاها اليوم فله الحمد مُعطياً وسالباً راضياً وساخطاً نافعاً وضارّاً ، هو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

ثم خرّ أيوب عليه الصلاة والسلام ساجداً لله حامداً شاكراً مستغفراً ، عند ذلك قال إبليس : اللهم ، إن سلّطتني على ولده فإنه يرتدّ كافراً ، فسلّطه الله على ولده ففنوا جميعاً ، ولما بلغ إبليس ما أراد ذهب إلى أيوب متمثّلاً في رجل ينعاه وقال له : لو رأيت أولادك اليوم قتلى مُضرّجين هـٰذا مجروح وذلك مشدوخ لعلمت أن الله لم يُكافئك بعبادته ولم يرعاك حقّ رعايتك ، فاستعذر أيوب وبكى ولكنه قال : الله أعطى والله أخذ ، فله الحمد مُعطياً وسالباً ، ساخطاً وراضياً ، نافعاً وضاراً ، ثمّ خرّ لله ساجداً ، وترك إبليس يكاد يتميّز[1] من الغيظ ويتمزّع من الحنق .

فعندما شاهد إبليس ذلك عاد إلى الله قائلاً : اللهم ، سلّطني على بدنه ، فإذا غزته الأمراض والأوجاع سيشتغل بأسقامه وينسى ذكرك ، وكان له ذلك ، فنفخ في أيوب فوقع سقيماً ، فاشتدّ هزاله وكثر ضعفه وخارت قوّته وانفضّ عنه أصدقاؤه ، وتخلّت عنه شيعته ولم يبقَ إلاّ زوجته العطوف التي صبرت على مرضه وآلامه وقامت على خدمته طويلاً ، وظلّلته بأجنحة رعايتها وحبّها ، وفي ظلّ هـٰذا الوضع ازداد إبليس غيظاً وتميّزاً ، وعلم أنه لا مدخل إلى أيوب إلاّ عن طريق امرأته ، فأتى امرأة أيوب بصورة رجل حسن جميل وقال لها :

أين زوجك؟ فقالت : إنه في الداخل سقيم مريض قد أنهكته الحمّى ، فقال : وما صبرك عليه؟! وأخذ يُذكّرها بأيام شبابه وفحولته وماله وولده وشيعته فأخذ ذلك منها مأخذ الحسرة في نفسها ، فدخلت على أيوب وقالت له : أين المال ، أين الأولاد ، أين الأخلاّء ، أين شبابك ، فقال : والله لقد سوّل لك الشيطان أمراً .

قالت : ادعُ ربّك أن يرفع عنك هـٰذا البلاء ، فقال لها : كم مكثت في

---

(١) التميّز : هو التقطّع من الغيظ .

الخير؟. قالت: ثمانين ، قال: وكم لبثت في البلاء؟ قالت: سبعاً ، قال: والله إني لأستحيي أن أطلب من الله أن يرفع بلائي ولم يبلغ بلائي ثمانين كما مكثت في الخير ثمانين ، وإني أرى أنّ صبرك قد نفد ، وأنّ إيمانك قد تراجع ، وأقسم بالله أنه إذا قام صحيحاً ليضربنّها مائة سوط ، وأقسم ألا يأكل من يدها طعاماً ولا يشرب ماءً ولا يُكلّفها أمراً ، وأمرها أن تُغادره وتنصرف عنه[1].

وعندما وجد أيوب نفسه وحيداً مريضاً سقيماً فزع إلى ربّه كما يفزع العبد المحتاج إلى خالقه قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ، فأوحى الله إليه أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

فشرب من هـٰذا الماء واغتسل منه فذهبت عنه أسقامه ، واكتسى عظمه لحماً وعاد إلى ريعان شبابه يفيض فتوّة وقوّة وكمالاً وعزماً ورجولةً وفحولةً ، وأما امرأته العطوف فقد حنَّ قلبها له ، ولم تصبر على فراقه ، ولا سيّما أنه في حال مرضه ، فعادت إليه مسرعة لتقوم على شأنه وترعى أموره ، وعندما دخلت عليه وجدت رجلاً فتيّاً قوياً قد اكتنز جسده اللحم فما عرفته حتى انكبّت عليه تعانقه وتحمد الله عزّ وجل أن أعاد له عافيته ، وأوحى الله إليه ما يبرّ بقسمه ، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا[2] فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

كان أيوب عليه الصلاة والسلام حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة ، وفي سبب ذلك أربعة أقوال:

ـ الأول: ما حكاه ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب فقال: أداويه لعلّه إذا برئ قال: أنت شفيتني ، لا أريد جزاء سواه ، قالت: نعم ، فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنَّها.

ـ الثاني: ما حكاه سعيد بن المسيّب أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز ، فخاف خيانتها فحلف ليضربنَّها.

---

(١) قصص القرآن: لمحمد أحمد جاد المولى ـ ص: ١٧٧.

(٢) ضغثاً: هي القبضة من الحشيش الذي فيه الرطب واليابس.

ـ الثالث: ما حكاه يحيى بن سلام وغيره أنَّ الشيطان أغواها أن تحمل أيوب أن يذبح سخلة[1] تقرباً إليه وأنه يبرأ، فذكرت ذلك لأيوب فحلف ليضربنَّها إن عوفي مائة.

ـ الرابع: قيل: إنها باعت ذوائبها (أي خصلاً من شعرها) برغيفين إذ لم تجد شيئاً تحمله إلى أيوب، وكان أيوب يتعلّق بها إذا أراد القيام، فلهـذا حلف ليضربنَّها[2].

ولعلم الله عزّ وجلّ بإخلاص هـٰذه المرأة الطاهرة العفيفة وصبرها على مرض زوجها مع نُدرة ذلك، وضعف البشر عادة عن الاحتمال والصبر، فقد أمره أن يمسك بقبضة من الحشيش الذي يحتوي الرطب واليابس فيضربها بها ضربة واحدة ويُكفّر عن يمينه إكراماً لهـذه المرأة الصابرة، ومن إكرامه عزّ وجلّ لزوجة أيوب أنه خلّد ذكرها في القرآن الكريم يُتلى إلى أن يرثَ الله الأرض ومن عليها.

ونستطيع أن نستخلص من شخصيّة امرأة أيوب عليهما السلام المعاني التالية:

١ ـ شدة الإخلاص والوفاء، فلم تترك زوجها يُعاني الآلام بعد أن ذهب عنه ماله ومات عنه ولده وضاعت عنه صحّته، بل جعلت من نفسها ممرّضة وخادمة رؤوماً عطوفاً لزوجها المريض.

٢ ـ قوّة صبرها رضي الله عنها، فكانت شديدة الصبر مع العلم أنّ إبليس وقبيله كانوا يمكرون في سبيل إبعادها عن زوجها مكراً خطيراً وخبيثاً، فقد بلغت من الصبر والإيمان والتقوى شيئاً يُقارب ما بلغه الأنبياء.

٣ ـ كرّمها الله عزّ وجلّ تكريماً عظيماً بحيث ذكرها في القرآن الكريم الذي يُتلى إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

* * *

---

(١) السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن، ذكراً كان أو أنثى.

(٢) تفسير القرطبي: ج١٥ ـ ص: ١٤٠.

المبحث الخامس
الملكة بلقيس

لقد كان لهـذه المرأة قصة عظيمة ، فهي ملكة تستحقّ الذكر وتستحقّ الاحترام؛ لأنها أذعنت للحقّ ، ولأنها تتّصف بحكمة بالغة ، ولكن تسلّط الشيطان عليها وعلى قومها ، فأوهمهم بأنّ الخالق عزّ وجلّ هو الشمس! فأخذوا يتعبّدون لهـذه الشمس ركوعاً وسجوداً وتضرّعاً ، ومضت هـٰذه السُّنّة في قومها ، واستمرّوا على هـٰذه الحال المنحرفة ، إلى أن شاء الله عزّ وجلّ أن يبعث إليهم بسليمان عليه الصلاة والسلام ليأخذ بأيديهم إلى جادّة الحقّ والصواب ، وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢٤].

كان سليمان عليه الصلاة والسلام قد دعا ربّه عزّ وجلّ أن يؤتيه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فآتاه الله مُلكاً عظيماً فسخّر له الجانّ وسخّر له الشياطين ، وسخّر له الريح تمشي بأمره ، وعلّمه منطق الطير ، فكانت الحيوانات والجانّ والإنس والريح تبعاً له بمشيئة الله عزّ وجلّ ، ورُويَ أنه كان يمتلك بساطاً يأمر الريح بحمله فتدخل الريح من تحته فترفعه وعليه سبعون ألفاً من أعوانه من الجنّ والإنس وتحطّ به في المكان الذي يريده ، وكانت الطير تُظلّله فتحجب عنه أشعّة الشمس ، وفي إحدى المرّات وجد أنّ أشعّة الشمس تتسلّل إليه من نقطة معيّنة من سرب الطيور الذي يُظلّله ، فنظر فوجد الهدهد

ليس في مكانه ، فقال: مالي لا أرى الهدهد؟! وتساءل عن سبب غيابه وتوعّده بعذاب أليم أو بالذبح والقتل إن لم يُبرّر سبب هٰذا الغياب[1] ، وقد كان الهدهد قد اطّلع على ملكة سبأ بلقيس وشاهد من عظمة عرشها الشيء الكثير ، وشاهد من جنودها وقوّتها ورأى أنها وقومها يسجدون للشمس ويعبدونها من دون الله عزّ وجلّ ، فعندما قدِمَ على سليمان عليه الصلاة والسلام جاءه بالسلطان المبين الذي طلبه ، وهو المبرّر الذي يخرج فيه من عقوبة سليمان عليه الصلاة والسلام له ، فقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

وعندما علم سليمان عليه الصلاة والسلام هٰذا الأمر أغضبه سجود هؤلاء القوم للشمس ، واتّخاذهم إيّاها إلهاً ومعبوداً من دون الله عزّ وجلّ ، فجاء قوله تعالى متابعاً القصة:

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٢٧ ـ ٣٧].

فعندما علمَ سليمان عليه الصلاة والسلام بوجود هؤلاء القوم أرسل إليهم الهدهد بكتاب كريم مختوم من سليمان عليه الصلاة والسلام ، وأمر الهدهد بأن يُلقيه على عرشها ، لينظر ماذا يفعلون ، وعند ذلك تلقّفت بلقيس هٰذا الكتاب ووجدت أنه كتاب كريم مليء بالجلالة والجمال ، تفوح منه عبرات الحقّ ، وقد بُدِئ الكتاب ببسم الله الرحمن الرحيم ، كما هي سنّة الأنبياء والمسلمين ،

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٣ ـ ص: ١٣١ وما بعدها.

فما استطاعت إلاَّ أن تكون منصفة مع نفسها فوصفت الكتاب بأنه كريم ، وجمعت جندها ومُستشاريها وقالت لهم :

إنه يقول لنا أن نأتيه وقد خلعنا ما نعبد من الشمس مسلمين لعبادة الرحمن الرحيم ، فقال لها القوم : لا بأس عليكِ فإننا أولو قوّة وأولو عزم لا يُشقّ لنا غبار ، وإننا لقادرون على الدفاع عن أرضنا وعقيدتنا ، ولا نخضع لسليمان هـٰذا .

ولكن الملكة بلقيس كانت قد أوتيت من الحكمة الشيء الكثير ، فقالت لهم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] فتعالوا لنبتدئ معه باللين ، وفق ما يُسمّى في أيامنا هـٰذه بالقنوات الدبلوماسية ، فجمعوا له هدية عظيمة فاخرة فرحوا بها وعظّموها ورفعوا من شأنها ، وأرسلوها إلى سليمان إرضاءً له وتقرّباً منه وليتجنّبوا معركة مع هـٰذا الملك النبيّ العظيم الذي لا طاقة لأحد به ، وكان ذلك التصرّف من بلقيس سياسة وحنكة وحكمة ودهاء فاقت به جميع الرجال والمستشارين الذين كانوا من حولها ، فتجنّب الحرب وسلب المُلك بالوسائل الدبلوماسية خير من الدخول في الحرب وتحمّل مشاقها ، ولا سيّما عندما تكون مع نبيّ مثل سليمان عليه السلام قد سُخّرت له الجنّ والإنس والطير والريح ، وفي الوقت ذاته لم تُفرّط بلقيس بعقيدتها الضالّة ، وأخذت تناور ، وعندما بلغت الهدايا سليمان عليه الصلاة والسلام استخفّ بها وقال : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۖ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل : ٣٦] .

فليس شأن الأنبياء أن يبيعوا دينهم بدنياهم وكيف يكون منهم ذلك؟! بالإضافة إلى أنّ الله عزّ وجلّ آتاه من الخير العظيم والمال الكثير والسلطان الشامل ، فلم يعد لهديّتهم قيمة في عينيه ، ويبدو من هـٰذا الموقف أنّ بلقيس تتعامل بمنطق ملوك الدنيا الذين يستوعبون سياسة الدنيا بضيقها وضآلتها .

وأما سليمان عليه الصلاة والسلام فيتعامل معها معاملة النبيّ المطّلع على قدرة الله عزّ وجلّ وعظمته وجلاله ، فينظر إلى هـٰذه الأمور نظرة الاستخفاف

والاستهانة ، فما دعاهم لدنيا يُصيبها بل لحقٍّ يرفعه ويُرسّخه في الأرض ، وردّهم بالهدايا التي كانوا يحملونها ويفرحون بها لعظمتها في عيونهم ، وقال لهم: لآتينكم بجنود لا قِبَلَ لكم بها ، ولأخرجنّكم من دياركم ومملكتكم أذلّة وأنتم صاغرون ، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

ومن هٰذه الآية يتبيّن لك أنَّ سليمان عليه الصلاة والسلام كان متيقّناً وواثقاً أنهم سيأتون إليه مسلمين مذعنين خاضعين للحقّ ، ولا سيّما أنهم رأوا من قوّته وسلطانه وما آتاه الله من الخير والنعم والأموال ، وسخّر له من الجنّ والإنس والطير ، بالإضافة إلى ما لمسوه من سليمان عليه السلام من زُهدٍ في الدنيا وزُهدٍ في الأموال والهدايا التي حملوها إليه وهم يُعظّمونها ويجدونها شيئاً لا يُردّ ، وتوقّعوا بأن إبلاغ هٰذه الهدايا إلى سليمان يحسم الموقف ويرفع النزاع.

ثمّ تابع عز وجلّ موضّحاً القصة: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٩ ـ ٤٠].

فأراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يُبيّن لها قدرته فقال لمن حوله: من يأتيني بعرشها؟ فقام عفريت من الجنّ ـ وقد سُخِّرَت له الجنُّ كما تقدّم ـ وقال: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ـ أي بسرعة خيالية ـ وإني عليه لقويٌّ أمين؛ أي: إني أقدر على المجيء به وأن أسلّمك إياه كما وجدته تماماً فإني أمين عليه أمانة تامّة وكاملة ، فقال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، وقد اختلفت التفاسير في ذلك فقالوا: إنما هو الخضر عليه الصلاة والسلام ، وقالوا: إنما هو سليمان ذاته عليه السلام؛ فهو الذي كان عنده علم من الكتاب ، وقيل غير ذلك ، وليس المقام هنا للتفصيل[1].

---

(١) المرجع السابق.

فعندما رأى العرش ماثلاً أمامه جاثماً أقرَّ سليمان عليه الصلاة والسلام بفضل الله عزّ وجلّ وقال: هـٰذا فضل الله عليّ فإنه امتحان منه أأشكر نعمة ربي أم أكفر بها؟ ، فإني إذا شكرت نعمته فإنما أشكر لنفسي فالثواب والفائدة تعود عليّ ، وإذا كفرتها فإنما أهلك نفسي وأحطّمها وأدمّرها ، وإنّ الله غنيّ عن شكري وغنيّ عن كفري أيضاً.

ثم تابع عزّ وجلّ القصّة: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤١ ـ ٤٣] فأراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يمتحن حنكتها وخبرتها فنكّر لها عرشها وجعل فيه بعض الاختلافات ، ثم قال لها: أهكـذا عرشك؟.

فعلمت أنه عرشها ولكنها استكبرت عن الإقرار ، وسبب هـٰذا الاستكبار طول عبوديّتها للشمس ، وطول مكوثها شاردة بعيدة عن أمر الله عزّ وجلّ ، وهـٰذا من الآثار السلبية والمحطِّمَة المتولّدة عن الشرود عن الله عزّ وجلّ ، فترى أنّ المشركين لا يخضعون للحقّ سريعاً ، فيصدّهم طول الكفر واعتيادهم عن الاستكبار والحواجز القلبية التي تكاثفت وتكاثفت نتيجة طول العهد بالشرك والإلحاد.

قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وأراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يُريها مُلكاً أعظم من مُلكها؛ لأنّ عرشها كان تحفة حقيقية من التحف ، فقال لها: ادخلي الصرح ، والصرح هو عبارة عن صحن على الماء ممرّد من قوارير ، أي مُملّس وكأنه ماء تماماً وتحته تسبح الحيتان ، وتعجّبت عندما رأت أنّ عرش سليمان على الماء ، وعندما قال لها: تقدّمي ، حسبت أنها سوف تغوص في الماء.

ولعلّها اعتقدت أنه أراد بها الغرق ولكن لا بدّ لها من الامتثال ، فكشفت

عن ساقيها وعندما داست علمت أنه ليس ماء ، ولا سيّما بعد أن قال لها: إنه ليس بماء وليس بلجّة[1] بل هو صحن ممرّد من قوارير ، وعندما رأت ذلك أذعنت وعلمت أنّ الله على كل شيء قدير ، فأقرّت بذنوبها وعصيانها وشرودها ودخلت مع سليمان في الإسلام.

وقد روى وهب بن منبّه:

ـ (أنَّ سليمان عليه الصلاة والسلام قصد أن يجعلها تدخل الصرح ، من أجل أن يستوثق من قدميها ، فقد قيل: إنّ أمّها كانت من الجانّ ، فظنّ بقدميها أنها أشبه بقدَمَي الحمار كأقدام الجانّ ، وعندما رفعت وكشفت عن ساقيها وجدهما أحسن ما يكون جمالاً ومنظراً ، ووجد فيهما شعراً كثيراً وعند ذلك استشار أحد مستشاريه ، فقال: كيف ننزع الشعر من دون أن نضرّ بالجسد؟ فأشار عليه بالحمّامات ، وحينذاك بُنيَت وصُنعَت الحمّامات ، وهـٰذه رواية عن وهب بن منبّه وهي رواية لا ترقى إلى درجة الصحّة)[2].

وقد قيل: إنّ سليمان تزوّجها وكان يطير على بساطه إليها في كل شهر مرّة ، وكل ذلك من الروايات التي لم تثبت ولا حاجة في هـٰذا المقام للخوض في مثل هـٰذه التفاصيل الضعيفة الإسناد.

ونستطيع أن نستخلص من هـٰذه القصة المعاني المتوفّرة في شخصية بلقيس ، وتتمثّل فيما يلي:

١ ـ القدرة على القيادة وسياسة الدولة وخضوع أعناق الرجال لها ، وهـٰذا تبدّى من خلال حكمها لسبأ وخضوع الرجال لها والذين كانوا أولي قوّة وبأس شديد ، وهـٰذا لا يعني إباحة تولّي المرأة الإمامة العامّة؛ لنهي الشريعة عن ذلك.

٢ ـ اتّباعها النموذج الديمقراطي في الحكم ، فكانت تستفتي ولا تقطع أمراً إلاّ بعد الاستشارة واستعارة عقول الرجال ، وقد ظهر لك مدى ولاء الجند لها

---

(١) اللجّة: الماء العميق.

(٢) تفسير القرطبي: ج١٣ ـ ص: ١٣٨.

وتعلّق المستشارين بها وثقتهم بحكمها.

٣ ـ الحلم والحنكة السياسية والقدرة الدبلوماسية على الأخذ والردّ، وعدم إصدار القرارات المتعجّلة، وتبصّرها بالأمور ولا سيّما أمور السلم والحرب، وقيادتها قومها إلى سبيل الأمن والنجاة.

٤ ـ خضوعها للمنطق واستجابتها للحقّ الباهر بعد أن رأت من آيات الله عزّ وجلّ، ودخولها مع سليمان عليه الصلاة والسلام في عبادة الله الواحد القهّار، بالرغم من طول مكثها على عبادة الشمس.

ويتبيّن لك نموذج من نماذج المرأة التي ذكرها القرآن الكريم وخلّدها في الكتاب الجليل ومازالت تُتلى إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

* * *

المبحث السادس
أم موسى عليه الصلاة والسلام وأخته

كان فرعون قد تسلّط على بني إسرائيل ، وكان يحكم مصر ، وبطبيعة الحال لم يكن يحكم مصر بصفته حاكماً بل كان يحكمها بصفته إلهاً مالكاً متصرّفاً!!.

وكان جميع أهل مصر يُذعنون له بالربوبيّة ، ويعتبرون أنفسهم عبيداً لهـذا الإله الجبّار ، وكان أهل مصر من (القبط) ، وكانت بنو إسرائيل في مصر ، وقد دخلوا إلى مصر عندما تولّى يوسف عليه الصلاة والسلام خزائن مصر وأصبح العزيز فيها ، ودعا أباه وأمّه وإخوانه فدخلوا مصر ، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

ولكن توالت الأيام وتسلّط هؤلاء الكفرة الفجرة على الحكم ، وكان يتزعّمهم فرعون. وأخذ يَكيل لبني إسرائيل الأذى والنكال وأصنافاً وأنواعاً وألواناً من الشرور حقداً عليهم؛ لأنهم يؤمنون بالله الواحد الأحد ولا يُذعنون بربوبيّة فرعون.

وفي إحدى الليالي رأى فرعون رؤية هالَتْهُ وأفزعته ، فقد رأى ناراً عظيمة تخرج من بيت المقدس فتُحيط بدُوْرِ مصر فتحرقها وتقتل قبطها ، فجمع السحرة والكهنة وأشار عليهم أن يُفتوه فيما رأى ، فقالوا: قد أظلّ زمان خروج نبيّ من بني إسرائيل يكون دمار ملكك على يديه[1].

ونتيجة لذلك جمع فرعون القابلات وأمرهنَّ بقتل كلّ من يولد ذكراً من بني إسرائيل ، ووكّل بهنّ وكلاء ، وكان الأمر على ذلك. ومصداق ذلك قوله

---

(١) قصص الأنبياء: كمال مصطفى شاكر ـ ص: ١٦١.

تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١].

فأمر بقتل كلّ من سيَلِدُ منهم من الذكور، وأخذ جنود فرعون يُعذّبون الحوامل من بني إسرائيل، حتّى يُسقطنَ أجنّتهنَّ، ومنهنَّ من كُنَّ يَمُتنَ نتيجة لهـذا التعذيب، ثم دخل زعماء القبط على فرعون فقالوا: لقد هلكت شيوخ بني إسرائيل، وأنت تقتل الأبناء، ويوشك أن يقع العمل علينا، فأمر أن يُقتل ذكورهم عاماً ويُتركون عاماً، وفي هـٰذه الأثناء كانت أمّ موسى عليه الصلاة والسلام حاملة به، ثمّ وضعته فخشيت عليه خشية شديدة ولم تدرِ ماذا تصنع، فأوحى الله إليها أن تجعله في تابوت ثم تقذفه في نهر النيل ولا تخشى شيئاً، فإنّ الله عزّ وجلّ سيتكفّل بحمايته وحفظه، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٩].

وتلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ سكّن قلب أمّ موسى عليه الصلاة والسلام فتجرّأت أن تضعه في تابوت وتلقيَه في نهر النيل، ويسير هـٰذا التابوت في نهر النيل بين الأمواج يمنة ويسرة، ثم يأمر الله عزّ وجلّ اليمّ[1] أن يُلقِيَهُ على ساحل قصر فرعون، وفي هـٰذه الحالة يراه فرعون وزوجته فيُرسل خدمه ليأتوا به، فيفتحون التابوت فيرون غلاماً فتقول (آسية) زوجة فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] فقد قذف الله في قلبها حباً عميقاً لهـذا الغلام.

ومن المعلوم أنّ فرعون قد قتل الآلاف من أبناء بني إسرائيل ليتجنّب الرؤيا التي رآها في منامه، ولكن الله عزّ وجلّ شاء أن ينشأ هـٰذا الغلام في قصر فرعون؛ ليكون هو المدمّر لهـذا الطاغية الذي يدّعي الربوبيّة، فكان تعلّق (آسية بنت مزاحم) رضي الله عنها بموسى عليه الصلاة والسلام تعلّقاً عظيماً، وذلك بفضل الله عزّ وجلّ ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩].

وأخذت تحاول إقناع ذلك الجبّار بأن يُبقي على حياة هـٰذا الغلام، فقالت له: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

---

(١) اليمّ: هو البحر أو النهر.

وكانت أمّ موسى تتلهّف لتعلم مصير ابنها ، وعندما علمت أنه وقع بين يَدي جنود فرعون خشيت عليه خشية شديدة وكادت أن تبدي به ، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : ١٠] .

ثم أمرت أخته أن تتبّع أثره ، فقالت لأخته : قُصّيهِ ، فأخذت أخته تتّبع أثره وتنظر إليه من جنب ؛ كي لا تلفت الأنظار إليها ، وحرّم الله على موسى ـ عليه السلام ـ المراضع ، فلم يقبل أن تُرضِعه امرأة ما ، فقالت أخته : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص : ١٢] ، وهنا قالت آسية زوجة فرعون رضي الله عنها : آتوني بالتي تُرضِعه وسوف تحظى بأفنان النعم والعطايا ، فأتِيَ بأمّ موسى فتلقّف ثديها ، فتعجّب فرعون من ذلك وقال لها : لقد رفض جميع النساء فما باله قد قَبِلَكِ؟! .

فقالت : إني امرأة طيّبة الريح طيّبة اللبن يُقبل عليَّ الأطفال ، فأجروا لها جراية (أي راتباً شهرياً) وعادت أمّ موسى بوليدها موسى عليه الصلاة والسلام مع حاشية من جنود فرعون وبأمره وبالكثير من العطايا والهبات ، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

ويبدو لك من خلال ما تقدّم المعاني التالية :

١ ـ شدّة إيمان أمّ موسى بحيث استجابت لأمر الله عزّ وجلّ ووضعت وليدها في تابوت وقذفته في نهر النيل ، وإنّ الغالب في مثل هـٰذه الحالات أن ينقلب به التابوت ويموت غرقاً ، ولولا إيمانها العميق بالله عزّ وجلّ لما أقدمت على هـٰذا العمل ، وتكريماً لها خلّد الله عزّ وجلّ ذكرها في القرآن الكريم ، ولتكون هـٰذه القصة عبرة لكل مؤمن ومؤمنة يُسلّم أموره لله عزّ وجلّ وهو واثق بالنصر .

٢ ـ دهاء المرأة وفطنتها ، فقد أمرت ابنتها بأن تتّبع أثر أخيها وترى إلى أي مكان سيؤول حاله ، وهـٰذا من الفطنة والتوكّل على الله أيضاً ؛ لأنَّ التوكّل على الله لا يتناقض مع اتّخاذ الأسباب ، لا عبوديّة لهـٰذه الأسباب بل احتراماً لله

عزّ وجلّ الذي جعل للأسباب شأناً في هـٰذه الحياة الدنيا بأمره جلّ وعلا.

٣ ـ وتجلّى في صفة المرأة أيضاً حبُّ الأخت لأخيها، وحرصها على متابعة شؤونه وطاعتها لأمّها، وكل ذلك يُعتبر من الصفات الإيمانية الحميدة التي إذا انتشرت بين الناس غدا الناس في ألف خير، فهاتان المرأتان نموذجان من النماذج النسائية التي ذكرها الله عزّ وجلّ في القرآن وخلّدها للأجيال.

* * *

المبحث السابع

بنتا شُعيب عليه السلام

عندما خرج موسى عليه الصلاة والسلام فارّاً من القوم الظالمين ودخل (مدين)[1] وكان قد عضّه الجوع والتعب والإرهاق ، رأى مجموعة كبيرة من الرعاة يسقون أغنامهم ، ورأى من دونهم امرأتين تذودان وتمنعان أنعامهما من السقي حتى يُصدِرَ هؤلاء الرعاة ، فأخذته النخوة والحميّة والرأفة وجاء إليهما وقال لهما: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣] فقام موسى عليه الصلاة والسلام بالسقاية لهما ، مع العلم أنّ السقاية في تلك الأحوال تحتاج إلى جهد جهيد ، وكان كما ذكرنا قد عضّه الجوع والتعب والإرهاق ، ثم لاذَ إلى الظلّ ولم يطلب أجراً منهما ودعا ربّه فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤].

وكان أثناء سفره يفترش الأرض ويلتحف السماء ويتغذّى على ورق الأشجار وحشائش الأرض ، وعادت الفتاتان إلى أبيهما ومعهما الأنعام قد مُلئت بطونها طعاماً وشراباً وامتلأت ضروعها باللبن ، فتعجّب من سرعة مجيئهما فقصّتا عليه القصص ، فأرسل إحدى بناته لتأتي بذلك الشاب ليجزيه أجر ما سقى لهم ، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص: ٢٥].

فقال لها عليه الصلاة والسلام: أسير أمامك وتسيرين ورائي لتُرشديني إلى الطريق فإنّا أبناء يعقوب لا ننظر إلى أعجاز النساء[2] ، فكان ذلك عفّة منه

---

(١) مدين: مدينة في منطقة جنوب سوريا الكبرى.

(٢) أعجاز النساء: أي مؤخّرات النساء.

وتقوى وأمانة ، وحرصاً على ألا يبدو منها شيء يحرم عليه النظر إليه .

وعندما جاء موسى عليه السلام إلى شُعيب عليه السلام وقصّ عليه القصص قال له شُعيب: لا تحزن ولا تخشَ شيئاً فإنّ فرعون ليس له سلطة على هٰذه البلاد، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وأشارت إحدى بنات شُعيب عليه السلام على أبيها فقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فلقد أيقنت هٰذه الفتاة بأمانة موسى عليه الصلاة والسلام وقوّته؛ أمّا قوّته فقد بدَت عندما رفع الرحى التي كانت على البئر التي يسقون منها ، فقد رفعها بيد واحدة وكانت لا تُرفع إلاّ بجمهرة من الرجال ، وأمّا الأمانة فقد ظهرت منه بأمور متعددة منها: خطابه لهما باختصار شديد فقال لهما: ما خطبكما؟ فهذه كلمة جامعة مانعة ابتعد فيها موسى عليه الصلاة والسلام عن إطالة الحديث وعما تجرّ الإطالة في الحديث من الفتنة .

ثمّ بعد أن قام بهذه المهمّة تولّى عنهما ولم يطلب منهما شيئاً ، ثمّ أمر إحداهما بعد أن أتتهُ تدعوه إلى أبيها ليجزيه أجر ما فعل أن تمشي وراءه وتُرشده على الطريق؛ خشية أن ينظر إلى شيء من عورتها ، وكان ذلك كلّه قد لقيَ استحساناً في قلب شُعيب عليه الصلاة والسلام ، فأراد أن يُزوّجه إحدى بناته ، واشترط عليه أن يكون المهر استئجار موسى عليه الصلاة والسلام ثماني سنوات وإن زاد سنتين فهو مُخيّر بتلك الزيادة ، وتزوّج موسى عليه الصلاة والسلام ـ كما يروى ـ الفتاة الصغرى[1] .

ولعلنا نستنبط من هٰذه القصة المعاني التالية:

١ ـ تحمّل بنتي شُعيب عليه السلام للمسؤولية ، وقيامهما برفع كاهل العمل عن أبيهما الشيخ الذي لم يستطع أن يقوم بهذه المهمة .

---

(١) قصص القرآن: كمال مصطفى شاكر ـ ص: ١٦٨ .

٢ ـ قيامهما بهـذا العمل مع مراعاة جميع الضوابط الشرعية والأخلاقية ، بحيث تجتنبا الاختلاط المشين بالرجال والاحتكاك بهم ، فقد امتنعتا عن المزاحمة؛ حتى لا يكون الاختلاط المشين.

* * *

المبحث الثامن

آسية زوجة فرعون

بعد أن استخفّ فرعون قومه فأطاعوه ، ورفضوا دعوة موسى عليه الصلاة والسلام التي قدّمها لهم عناداً واستكباراً وجحوداً بالحقّ ، كان هناك بعْض من آل فرعون قد أسرّوا إيمانهم ، ولكن آسية زوجة فرعون رضي الله عنها لم تُسِرَّ إيمانها بالله عزّ وجلّ رباً وبموسى عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً ، فآمنت به إيماناً كاملاً ، وأعلنت هـٰذا الإيمان ، ونتيجة إعلانها هـٰذا الإيمان تعرّضت إلى أنواع وأنواع من العذاب والتنكيل على يد فرعون لعنة الله عليه ، قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم : ١١] .

إن الله عزَّ وجلَّ في هـٰذه الآية الكريمة يحثّ المؤمنين على الصبر في الشدائد ، ولا سيّما الفتنة التي يتعرّض لها المؤمنون في سبيل ترك الدين ، فأرشدهم إلى أن يكونوا أقوياء صابرين كما كانت هـٰذه المرأة الطاهرة آسية امرأة فرعون ، فقد ابتُلِيَت ابتلاءً شديداً ومع ذلك أصرّت إصراراً حاسماً على التمسّك بعقيدتها ودينها .

ويُروى أنّ آسية قد أعلمت فرعون بإيمانها ، فخرج فرعون على ملئِهِ من الكفّار فقال لهم : ماذا تقولون في آسية بنت مزاحم؟

فأثنوا عليها خيراً ، فقال : إنها قد تركت عبادتي وعبدت إله موسى ، فأشار عليه القوم بقتلها ، فعزم على تعذيبها والتنكيل بها؛ ليشفي غليله وحقده منها ، فوضع لها أوتاداً وأوتد يديها وقدميها ، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى

﴿ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٠ ـ ١٣].

فكان فرعون ومَلَؤهُ يُعذّبون الناس بالأوتاد، فيقيّدونهم بأيديهم وأرجلهم، ثمّ يضعونهم تحت الشمس الحارقة على الرمال الملتهبة ويُمارسون عليهم أنواعاً وأشكالاً وأصنافاً من العذاب، وعندما فعل فرعون ذلك بآسية بنت مزاحم رضي الله عنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: (كانت تُعذّب بالشمس، فإذا ولّى الناس عنها حفّتها الملائكة بأجنحتها ووَقَتْها من أشعة الشمس الحارقة)[1].

وقيل: (سَمَّر يديها ورجليها في الشمس، ووضع على ظهرها رحى فأطلعها الله على مكانها في الجنّة).

وقيل: (لما قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أُرِيَت بيتها في الجنّة، وقيل: إنه من درّة، هـٰذا عن الحسن، ولما قالت: ﴿وَنَجِّنِى﴾ نجّاها الله أكرم نجاة فرفعها إلى الجنّة، فهي تأكل وتشرب وتتنعّم)[2].

وأما دعاؤها بأن يُنجّيها الله عزّ وجل من عمل فرعون فتعني الكفر الذي كان عليه فرعون، أو التعذيب الذي كان يُمارسه عليها هـٰذا الفاجر، وقيل: إنّه الجماع، وقصدت بالقوم الظالمين القبطَ الذين كانوا يعبدون فرعون ويتخذونه إلهاً.

وقيل: أثناء عذابها مرّ بها موسى عليه الصلاة والسلام فلم تستطع أن تتكلّم لشدّة العذاب الذي حاق بها، فأشارت إليه بإصبعها تشكو إليه العذاب، فدعا الله عزّ وجلّ أن يُخفّف عنها العذاب، فلم تعد تشعر بأي نوع من العذاب، ثمّ أوحى الله إليها أن ارفعي رأسك إلى السماء، فرفعت رأسها فوجدت البيت الذي طلبته من الله قد بُنِيَ لها من الدرّ، فضحكت وابتسمت، فقال فرعون لأصحابه: ألا تعجبون من هذه المجنونة، تبتسم وهي في العذاب؟! ثمّ قبض

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٨ ـ ص: ١٣٢.

(٢) المرجع السابق.

الله روحها وهي في الجنّة تأكل وتشرب[1].

فإليك هـذه المرأة المجاهدة والمكافحة في سبيل دينها ، وفي سبيل إخلاص عبوديّتها لله عزّ وجلّ ، مع العلم أنها تستطيع أن تكتم إيمانها كما فعل البعض من آل فرعون ، ولكن شجاعتها وإقدامها وعشقها للتضحية بذاتها في سبيل الله عزّ وجلّ دفعها إلى المجاهرة بالكفر بفرعون والإيمان بما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام ، مع العلم أنّ هـٰذه المرأة كانت زوجة فرعون ، وتستطيع أن تُقدّر النِّعَم والرفاهية التي كانت تحظى بها فهي تُقاسم فرعون في جميع ما يمتلكه من مال وقصور وجاه وسلطان بل ونوع من أنواع الربوبيّة ، ومع كلّ ذلك ترى أنها قد رَكَلت بقدمها كلّ هـٰذه الدنيا ولذّاتها ومُتعها وجادت بنفسها في سبيل عقيدتها وحبّاً لله عزّ وجلّ.

فعلى الكثير من رجال الدين الذين يزعمون بأنهم رجال دين قد ملكوا العلم من جميع أطرافه ، وأنهم أحبّاء الله في الأرض ويتمتّعون بصفة الرجولة التي من شأنها ـ حسب الظاهر ـ القوّة والجلادة والصبر أن يتتلمذوا على يد هـٰذه المرأة العظيمة آسية ابنة مزاحم.

أما هـٰذه المرأة الطاهرة فلم ترضَ أن تبيع دينها ولو كانت بقيمة فرعون في مصر من العزّة والرفاهية والجاه والملك والمال ، فالقضية إذن ليست قضية رجولة وأنوثة ، إنما القضية قضية إخلاص ودين وعزيمة وحبّ لله جلّ وعلا.

ونستطيع أن نستنبط من قصّة آسية رضي الله عنها المعاني التالية:

١ ـ قدرة المرأة على النضال والكفاح والجهاد في سبيل الله بحيث إنها تفوق الملايين من الرجال.

٢ ـ حبّ الله لهـذه المرأة بأن هداها إلى طاعته حتى جادت بنفسها في سبيل حبّه.

٣ ـ الكرامة التي منحها الله لآسية حيث رفع عنها العذاب وأراها مقعدها وقصرها في الجنّة.

---

(١) قصص الأنبياء: كمال مصطفى شاكر: ص: ١٩٩.

٤ ـ قوّة هـٰذه المرأة وصلابتها وشدّة عشقها لله حيث إنها تضحك وهي تتعذّب بعد أن تيقّنت من رضا الله عزّ وجلّ عنها.

٥ ـ متانة شخصيّتها؛ وتبدّى ذلك بأنها جاهرت بإسلامها وإيمانها في وجه فرعون مصر ، ونعلم نحن أنّ أشدّ الجهاد هو كلمة حقّ في وجه سلطان جائر ، فما بالك عندما يكون هـٰذا السلطان هو فرعون ذاته ، والذي يُضْرب به المثل حتّى اليوم بالجبروت والقسوة والإجرام؟.

* * *

المبحث التاسع

مريم عليها السلام

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ١٦ ـ ٢١].

معنى قوله تعالى: أن اذكر يا محمّد (ﷺ) لقومك قصّة هٰذه المرأة العظيمة مريم عليها السلام إذ انتبذت؛ أي: اتّخذت وتباعدت عن أهلها في المسجد، وكان تباعدها تجاه مكان شرقي في المسجد، وهو المكان الذي يكون جهة المشرق، حيث تُشرق الشمس؛ لأنهم كانوا يُعظّمون جهة المشرق باعتبارها جهة شروق الشمس والأنوار، ولا يخفى أنّ مريم عليها السلام كانت قد نذرتها أمّها لخدمة المسجد، وحُكِيَ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال: (إني لأعلمُ الناسِ لمَ اتّخذ النصارى المشرق قبلة لقوله الله عزّ وجلّ: ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ فاتّخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة، وقالوا: لو كان شيء من الأرض خيراً من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السلام فيه).

ولا يخفى أنّ الناس قد اختلفوا في نبوّة مريم عليها السلام، فمنهم من قال: إنها نبيّة من الأنبياء، واحتجّ لذلك بأن الله قد أرسل إليها ملكاً وخاطبها ذلك الملك، وذلك يُعتبر وحياً ولا يكون الوحي إلا للأنبياء.

وقال آخرون: ليست بنبيّة؛ لأنّ الملك الذي أتاها أتاها على شكل بشر وقد رأى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين جبريل عليه السلام بصورة بشر عندما

دخل على الرسول ﷺ وسأله عن الإسلام وعن الإيمان والإحسان ، ثمّ قال لهم ﷺ بعد انصرافه: «رُدُّوا عليَّ الرجل ، فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ: هـٰذا جبريل جاء ليعلّم الناس دينهم»[1].

فلقد رأى هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم أجمعين جبريل عليه السلام بشكل وصورة بشر ، ولم يدّعِ أحد أنّ الصحابة تحوّلوا إلى أنبياء بمجرّد رؤيتهم لجبريل بهـذه الصورة ، فالأصحّ والراجح ـ والله أعلم ـ أنها كانت امرأة صالحة صدّيقة ولم تكن من الأنبياء.

وعندما اتّخذت مريم عليها السلام من أهلها مكاناً شرقياً وضعت بينهم وبينها حجاباً ، واعتزلتهم لتتعبّد الله عزّ وجلّ ، وفي أثناء ذلك أرسل الله عزّ وجلّ إليها جبريل عليه السلام ، وقد قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧] والروح هنا هو جبريل عليه السلام ، تمثّل لها جبريل بصورة البشر؛ لأنّ البشر لا طاقة لهم بأن يروا جبريل عليه السلام على خلقته التي خلقه الله عليها إلاّ من شاء الله من البشر ، ومن ذلك رؤية رسول الله ﷺ لجبريل على خلقته وهيئته الحقيقية ، فما كان من مريم عليها السلام إلاّ أن فزعت من هـٰذا الرجل الذي اقتحم عليها أسوار حجابها ، فتعوّذت بالرحمن عزّ وجلّ من هـٰذا المخلوق فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

والتقيُّ بطبيعة الحال هو الرجل الذي يتّقي الله عزّ وجلّ ، ويبدو ـ والله أعلم ـ أنها توسّمت في هيئته ووجهه صلاحاً وتقوى وورعاً ، فذكّرته بالرحمن وظنّت به التقوى ، وقد ورد عن وهب بن منبّه: (أنّ (تقياً) كان رجلاً فاجراً من بني إسرائيل وقد تمثّل جبريل عليه السلام بهيئته ، أو أنّ مريم عليها السلام ظنّت أنّ هـٰذا الرجل الذي تجرّأ على اقتحام أسوار حجابها إنما ذلك الفاجر ـ تقي ـ).

---

(١) صحيح مسلم: ج١ ـ برقم ٩.

وهـٰذه رواية ضعيفة لا يؤبه لها ، ومن المعروف أنّ وهب بن منبّه كان يروي عن كتب بني إسرائيل.

ثمّ أجابها جبريل عليه السلام مطمئناً لها ومُهدئاً من روعها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩].

أي إنّ الله عزّ وجلّ أرسلني بحكم وإرادة منه ليهب لك ـ عز وجلّ وهو على كلّ شيء قدير ـ غلاماً زكياً طاهراً مؤمناً ورعاً فيه كل صفات الصلاح والتميّز والإخلاص لله عزَّ وجلَّ ، فتعجّبت عليها السلام من ذلك وقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] لأنها عليها السلام تعلم أنّ الحمل والولادة إنما يكونان بالنكاح ، وهـٰذه هي السنّة الإلٰهية التي أرادها الله عزّ وجلّ في جميع البشر وفي جميع مخلوقاته أيضاً من الحيوانات والنباتات ، فحتّى النباتات يتمّ النكاح بينها عن طريق التلقيح ، وهي عليها السلام لم تكن متزوّجة ، وهـٰذا معنى قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ فقُصد بالمسّ المسُّ الجنسي ، ثمّ تابعت تقول: ولست بالبغيِّ التي ترتكب الفواحش فيكون منها الحمل أمراً طبيعياً ليس بمستهجن! ولم تكن عليها السلام تعني في قولها هـٰذا التشكيك في قدرة الله على كل شيء ، فإنها رضي الله عنها كانت على علم يقيني بأنّ الله على كل شيء قدير وإذا أراد شيئاً إنما يقول له: كُن فيكون ، ولكنها تتعجّب من مخالفة هـٰذا الأمر الذي سيحدث معها للقواعد البشرية في النكاح والتناسل.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

فأجابها جبريل عليه السلام بأنَّ ذلك قد تمَّ بإرادة الله عزّ وجلّ وهو في علمه ، وأنّ الله كما تعلمين على كل شيء قدير ولا يُعجزه شيء جلّ وعلا ، والحكمة من اختيار هـٰذه الطريقة والوسيلة؛ ليكون آية للبشر وبني إسرائيل خاصة ، ومعجزة إلهية تُرشدهم وتُذكّرهم إلى قدرته عزّ وجلّ ، وأنّ الله عزّ وجلّ قد خلق عيسى عليه السلام؛ ليكون رحمة للناس ورأفة بهم. وإنما

كان هٰذا الأمر في علم الله عزّ وجلّ ومكتوباً في اللوح المحفوظ منذ الأزل وهو منتهٍ وواقع لا محالة.

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٢ ـ ٢٣].

أما قوله: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: تنحّت بالحمل إلى مكان بعيد، قال ابن عبّاس: (إلى أقصى الوادي وهو وادٍ في بيت لحم بينه وبين (إيلياء)[1] أربعة أميال، وإنما بعدت فراراً من تعزير قومها إياها بالولادة من غير زوج)[2].

وقوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أجاءها أي: اضطّرها، ونتيجة للمخاض لجأت مريم عليها السلام إلى جذع النخلة، فتعلّقت به من شدّة الألم، وتمنّت أن تكون ماتت على أن تقع في هٰذه الحادثة، وتمنّت لو أنها كانت نسياً منسياً، أي: لم تكن أصلاً شيئاً يُذكر؛ وذلك لخشيتها أن يقع الناس في سيرتها ولا سيّما أنها المرأة الطاهرة البتول العذراء، وليس من اليسير أن يتفهّم بنو إسرائيل أنّ امرأة حملت من دون نكاح ولا جماع، وقيل: إنها خشيت أيضاً على بني إسرائيل أن يفتروا عليها في الزنى فيقعوا في إثم خطير وشرّ وبيل.

وقد جاء في تفسير القرطبي: (أنها سمعت صوتاً من أسفلها يقول: اخرج يا من تُعبد من دون الله، فحزنت لذلك حزناً شديداً وقالت: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾)[3].

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] قيل في ذلك: إنه ناداها جبريل عليه السلام من تحتها فقال لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ والسريُّ هو الجدول من الماء، وكان هٰذا الجدول قد انقطع ماؤه

---

(١) إيلياء: هي مدنية القدس في فلسطين.
(٢) تفسير القرطبي: ج١١ ـ ص: ٦٢.
(٣) المرجع السابق.

فجعل الله فيه الماء كرامة لمريم عليها السلام.

وقيل: إنما الذي ناداها عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، والرواية الأولى هي الأقوى[1].

وقرأ ابن عباس: «فناداها مَلَكٌ من تحتها»، قالوا: وكان جبريل عليه السلام في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت هي عليها[2].

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٥ ـ ٢٦].

وهنا وبعد أن أتاها جبريل عليه السلام وقال لها: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم ٢٤ ـ ٢٥]، فباعتبارها كانت متعلّقة بالنخلة فأمرها الله عزّ وجلّ أن تهزّ هٰذه النخلة فتتساقط عليها رطباً جنياً، والرطب الجَنيُّ هي الرطب التي طابت وحَسُن قطافها ولذّ طعمها، ويظهر جليّاً من هٰذا الأمر الإلهي معنيان بارزان:

١ ـ أنّ الله عزّ وجلّ يأمرها بألا تُبالي بما سيقوله الناس عنها، ولا تُبالي بما ستتعرّض له وبما تتخوّف منه، ولتهتمّ بنفسها ولتشرب من هٰذا الماء العذب، ولتأكل من هٰذا الثمر الطيّب الطاهر فهو طمأنينة لقلبها وسكون لفؤادها، فأراد الله عزّ وجلّ أن يُطمئنها ويُذهب عنها ما لقيته من الهمّ والغمّ حينما قالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

٢ ـ الحثّ على التوكّل على الله عزّ وجلّ، فمن المعروف أنّ جذع النخلة الذي قد غرس جذوره في أعماق التربة لا يُهزّ باليد، بل إنه بلغ من الصلابة والقوّة حيث إنه لا يُكسر إلاّ بالمِسْحاة[3] وما شابه، فأمر الله عزّ وجلّ بأن تهزّ بيدها الرقيقة وهي الأنثى الرقيقة وقد ولدت الآن، ولا يخفى حال المرأة أثناء

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المسحاة: هي نوع من الآلات الزراعية التي تُستخدم وتُشابه الفأس.

نفاسها من الضعف فلا تستطيع أن تهزّ هـٰذا الجذع الصلب ، وذلك يوحي بأنّ الاعتماد على الله هو الأساس ، وأنّ الإنسان عليه أن يفعل ما يأمره الله عزّ وجلّ به من الأسباب ويتوكّل في نهاية الأمر على ربِّ الأسباب ، ويظهر من قوله تعالى : ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ دعوته إياها عليها السلام إلى الطمأنينة والراحة النفسية وعدم المبالاة ، والاعتصام بحبل الله المتين ، وكيف للإنسان أن يُبالي مع علمه ويقينه بأنّ الله قد بسط عليه رعايته ، ثمّ أضاف عزّ وجلّ فكفاها الهمّ والغمّ الذي تتوقّعه من مقابلة بني إسرائيل لها واتّهامهم لها بالفاحشة وافترائهم عليها ، فقال لها : لا تتحمّلي حتى مجرّد عبء الكلام معهم فإذا لقيتِ منهم أحداً فقولي له : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٦] فأسقط عنها جميع الأعباء[١] .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٧ ـ ٢٨] .

وهنا وعندما وضعت مريم عليها السلام عيسى عليه الصلاة والسلام أتت به من المكان القصيّ الذي كانت قد اعتزلت الناس فيه وجاءت تحمله إلى قومها ، بعد أن اطمأنّت بما طمأنها به الله عزّ وجلّ ، قال ابن عباس :

[(خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس ، فجاءتهم عند الظهر ومعها صبيّ تحمله ، فكان الحمل والولادة في ثلاث ساعات من النهار) .

وقال الكلبي : (ولدت حيث لم يشعر بها قومها ومكثت أربعين يوماً للنفاس ، ثم أتت قومها تحمله)][٢] .

وقال السُدّي ووهب بن منبّه :

(لما أتت به قومها تحمله تسامَعَ بذلك بنو إسرئيل فاجتمع رجالهم ونساؤهم ، فمدّت امرأة يدها إليها لتضربها فأجفّ الله شطرها فحُملت كذلك . وقال آخر : ما أراها إلاّ زَنت ، فأخرسه الله تعالى ، فتحامى الناس من أن

---

(١) الجامع الكبير لأحكام القرآن للقرطبي : ج١١ ـ ص : ٦٥ .
(٢) القرطبي : ج١١ ـ ص : ٦٦ ـ ٦٧ .

يضربوها أو يقولوا لها كلمة تؤذيها ، وجعلوا يخفضون إليها القول ويلينون)[1].

فعندما أتت به قومها تحمله بين يديها قالوا لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] أي: إنّ هٰذه الصنيعة التي صنعتها بعيدة عنك وبعيدة عن أمثالك من الأتقياء؛ لأنّ أمك وأباك كانوا من خيار الناس وسادتهم في التقوى والصلاح ، فلم تكن أمّك ممارسة للبغاء ولم يكن أبوك رجلاً سيئاً فاجراً.

وقد اختلفت الأقوال في تفسير قولهم: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ فقال البعض: إنما نُسِبَت إلى هارون أخي موسى عليهما الصلاة والسلام؛ لأنها تنحدر من سلالته ، وقيل: إنّ هناك رجلاً صالحاً تقياً ورعاً يُدعى بـ (هارون) فنسبوا مريم إلى هارون من حيث الصلاح واشتراكهما في التقوى والورع ، وقيل: لقد كان لها أخٌ من أبيها يُدعى (هارون) ، وقيل: كان هنالك رجل فاجر شديد الفجور يُضرب به المثل في الفجور والخروج على الدين والقيم يُسمّى (هارون) فقد عرّضوا بها وأساؤوا إليها في نسبتها إلى (هارون) ، والراجح والأصحّ أنها منتسبة إلى (هارون) أخي موسى عليهم السلام جميعاً ، فكما تقول العرب: يا أخا هُذَيل ، يا أخا تميم ، يا أخا العرب ، فلا يقصدون الأخوّة الحقيقية التي نترجمها في أيامنا هٰذه بمعنى الشقيق ، وإنما يقصدون بها الانتساب إلى بني تميم والانتساب إلى بني هُذَيل والانتساب إلى العرب.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٩ ـ ٣٣].

وهنا يتبيّن أنَّ مريم عليها السلام أشارت إليه ، وهٰذا يؤيّد من قال: إنها لم تقل: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

---

(١) المرجع السابق.

وأعني بأنها لم تقل ذلك بلسانها للقوم ، بل إنها قالت ذلك في قلبها وتعاملت مع القوم بلغة الإشارة ، إذن فأشارت إليه أي: إلى عيسى عليه السلام ، فقال هؤلاء الناس: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾؟! [مريم: ٢٩] وقد رُويَ أنهم قالوا: إنّ إساءتها باستهانتها لعقولنا أشدّ من إساءتها في زناها[1] ، وهم يتعجّبون كيف يُخاطبون من كان طفلاً رضيعاً ممدّداً في المهد لا يستطيع إلاّ البكاء حسب القواعد البشريّة التي فطر الله الناس عليها ، فما كان من عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إلاّ أن توجّه بوجهه إليهم وترك الرضاعة التي كان منشغلاً بها عنهم ، ثم اتّكأ على يده اليسرى وأشار إليهم بسبّابته اليُمنى وقال لهم: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٣٠].

وإنك تُلاحظ أنَّ أوّل ما نطق به عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام هو الإقرار بعبوديّته لله عزّ وجلّ ، وهٰذا يُعتبر حكمة إلٰهية بالغة للردّ على الغُلاة الذين جعلوا من عيسى عليه السلام إلٰهاً يُنازع الله في ربوبيته جلّ وعلا عن ذلك علواً كبيراً ، ثمّ تابع عيسى عليه السلام قائلاً: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١] أي: تُلتمس مني البركة وتصدر عني الأفعال المباركات ويتبارك البشر والخلائق بي ، وتابع قائلاً: بأنَّ الله عزّ وجلّ قد أوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيّاً ، وقد أمره عزَّ وجلَّ بأن يكون بارّاً بوالدته ولم يجعله عزّ وجلَّ جبّاراً شقيّاً عاصياً نمروداً بعيداً كل البعد عن الطاعة والإيمان والخضوع لله عزّ وجلّ.

قد تقدّم في الآيات الكريمات ذكر قصة مريم عليها السلام وولادتها لعيسى عليه الصلاة والسلام ، ومن المعروف أنَّ أمّ مريم عليها السلام كانت امرأة عاقراً لا يولد لها ولد ، وكانت تتأذى من ذلك تأذّياً كبيراً ، فكلما شاهدت طيراً يُطعم فرخه امتلأت نفسها بالحسرات والعبرات ، وأخذت تتضرّع إلى الله عزّ وجلّ وتلجأ إليه بالدعاء من أجل أن يهبها ولداً يكون لها قرة عين ، ونذرت إن منحها الله عزّ وجلّ هٰذا الولد أن يكون خادماً في بيت الله عزّ وجلّ وهو بيت المقدس ، واستمرّت بتوسّلها وتضرّعها لله تعالى حتّى شعرت بالجنين ينبض

---

(١) المرجع السابق.

في أحشائها ، فاستبشرت خيراً واخضرّ عودها وامتلأت سعادة وفرحاً[1] ، وفي هـٰذه الأثناء توفّي والد مريم عليها السلام ، وعندما حان ميعاد الوضع وضعتها أنثى ، وأخبر بذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٦] ، وتقصد أنّ خدمة البيت من الأعمال التي يصلح لها الذكور دون الإناث. ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧] وعند ذلك اطمأنّت أمّ مريم بأنّ الله عزَّ وجلَّ قد قَبِلَ نذرها ، وسمّتها مريم ، وتعني العابدة ، فقد نذرت أمها أن تكون عابدة لله تعالى خادمة لبيت المقدس متفرّغة لهـذا العمل الطاهر ، وأسرع القوم يتبادرون إلى كفالتها ، ولا سيّما أنها ابنة إمامهم (عمران) رضي الله عنه وهو الرجل القدّيس الطاهر ، واشتدّ الخصام في أمر كفالتها ، وكان أحرص الناس على كفالتها (زكريا) زوج خالتها عليه الصلاة والسلام ، فأخذ يُقنع القوم بأنه أولى الناس بكفالتها ، ولا سيّما أنه زوج خالتها ، ولكن الناس كانوا مصرّين على كفالتها ، وأخذ كلّ واحد منهم يُبرز أهليّته لهـذه الكفالة والدواعي التي تجعله مُقدّماً على غيره ، وعند ذلك اقترحوا أن يُلقوا بأقلامهم (أي سهامهم) في النهر ، فاجتمعوا لذلك وألقوا سهامهم فغرقت جميع السهام وطاف سهم (زكريا) عليه السلام فكفلها بذلك ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: ٣٧] وعند ذلك تولّى زكريا كفالتها وحرص على تنشئتها نشأة طاهرة صالحة تقيّة ، وكان حريصاً عليها حرصاً كبيراً ، بحيث وضع لها مكاناً في بيت المقدس مرتفعاً لا يوصل إليه إلاّ بسلّم من أجل أن يكون هو الوحيد الذي يدخل إليها[2].

وبدأ زكريا عليه السلام يُلاحظ على مريم علامات غريبة ، فكان إذا دخل عليها وجد عندها فاكهة الصيف في فصل الشتاء ، ووجد عندها فاكهة الشتاء في فصل الصيف ، ولا يدخل عليها إلاّ هو ، فتعجّب من ذلك الأمر تعجّباً

---

(١) قصص القرآن: محمد أحمد جاد المولى ـ ص: ١٨٨.

(٢) قصص القرآن: ص: ١٨٨ ـ ١٨٩.

كبيراً ، قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ [آل عمران: ٣٧] ، وربما وجد عندها ثماراً لا توجد في فلسطين بأسرها ، وأصنافاً وأشكالاً متنوّعة من الرزق ، بالإضافة إلى فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ، قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧] عند ذلك علم زكريا عليه السلام أنَّ لمريم شأناً كبيراً عند الله عزّ وجلّ وأنّ لها أمراً عظيماً ، ونتيجة رؤيته لهذه المعجزات العظيمة تحرّكت في نفسه الرغبة لأن يكون له ولد ، وتحطّمت العوائق المادية التي كان ينظر إليها ، فكون امرأته عاقراً لا قيمة له لأن الله إذا أراد أمراً كان مفعولاً ، قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣٨] ، فمشاهدة زكريا عليه السلام الكرامات التي منحها الله لمريم عليها السلام جعله واثقاً من إجابة الله عزّ وجلّ له ، وحرّك في صدره الرغبات الكامنة ، وفي ذلك جاء قوله تعالى :

﴿ كهيعص ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١ ـ ١٠].

ومن خلال ما تقدّم يتبيّن لنا مكانة المرأة عند الله عزّ وجلّ ومكانتها في القرآن ، فإنَّ الله عزّ وجلّ اصطفى مريم من أجل أن تحمل بنبيّه وكلمته وروحه عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ ، ولعلّه يتجلّى مما تقدّم المعاني التالية :

١ ـ كرامة المرأة عند الله عزّ وجلّ .

٢ ـ المرأة أمّ للأنبياء .

٣ ـ المرأة تجري على يديها الكرامات.

٤ ـ صبر مريم عليها السلام على امتحان ربّها بقومها وافترائهم عليها.

٥ ـ رغبة أمّ مريم بولادة ذكر يصلح لخدمة بيت المقدس، وإرادة الله عزّ وجلّ ولادتها بمريم؛ لتكون من أبرز مقدّسات بيت المقدس.

وقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من بني آدم مولود إلاّ يمسّه الشيطان حين يولد فيستهلّ صارخاً من مسّ الشيطان غير مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]»[1].

وعن علي رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة»[2].

ورُوِيَ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كَمَلَ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون»[3].

* * *

(١) صحيح البخاري: ج٢ كتاب الأنبياء ـ برقم ٣٢٤٨.
(٢) صحيح البخاري: ج٢ كتاب الأنبياء ـ برقم ٣٢٤٩.
(٣) صحيح البخاري: ج٢ كتاب الأنبياء ـ برقم ٣٢٥٠.

المبحث العاشر

مطالبة زوجات رسول الله ﷺ بزيادة النفقة

لا يخفى أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على الآخرة زاهداً بأمر الدنيا ، وكان له عدّة الزوجات ، وكان عليه الصلاة والسلام يعيش حالة من شظف العيش ، فكانت حال نساء رسول الله ﷺ من القلّة والفقر أشدّ من حالة أفقر زوجات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وقد شَقّ ذلك الحال على نساء النبي ﷺ فاجتمعنَ عليه وطالبنه بزيادة النفقة .

وقد رُوِيَ أنَّ أبا بكر رضي الله عنه جاء إلى باب رسول الله ﷺ فوجد أناساً كثيرين في الباب جالسين قد استأذنوا بالدخول عليه ﷺ فلم يؤذن لهم ، فاستأذن أبو بكر فأُذِنَ له ، ثم جاء عمر رضي الله عنه فاستأذن فأُذِنَ له ، فوجد عمر رضي الله عنه رسول الله ﷺ مُتجهّماً ، فقال: والله لأقولنّ لرسول الله ﷺ شيئاً يُضحكه: لو ترى يا رسول الله ابنة خارجة قد سألتني النفقة فقمت فَوَجَأْتُ عنقها ، فضحك ﷺ وقال: هُنَّ حولي يسألنني النفقة. فقام أبو بكر رضي الله عنه فوَجَأَ عنق عائشة رضي الله عنها وقال لها: أتسألين رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟! .

وقام عمر رضي الله عنه ففعل مثل ذلك ، فقالتا: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد اليوم شيئاً أبداً ليس عنده؛ ثم اعتزلهنَّ شهراً أو تسعاً وعشرين يوماً ، ثم نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

فدخل ﷺ على عائشة رضي الله عنها وقال: إني مُخيّرك بأمر ولكن

استشيري أبويكِ ، وتلا عليها الآية فقالت: أفيكَ أستشير أبويَّ يا رسول الله! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة[1].

وقالت زوجاته: بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة.

وذُكر أنه ﷺ قال لعائشة: استشيري أبويكِ؛ لحبّه لعائشة خاصّة ، ولخشيته عليها لحداثة سنّها أن تختار فراقه وعلمه أنّ أبويها لا يُشيران عليها بذلك[2].

وبطبيعة الحال فإنَّ نساء رسول الله ﷺ من البشر فيسري عليهن سائر الأحكام التي تسري على البشر ، لذلك فقد أحبّبن أن يُوسّع عليهن ﷺ في النفقة ، ولا سيّما أنه كان ﷺ زاهداً في الدنيا معرضاً عن لذّاتها ، فالبشر جميعاً ـ ولو كانوا على أسمى درجات السمو والرفعة ـ يشتركون في صفات ثابتة فطرية قد خلقها الله فيهم وكوّنهم عليها ، ومنها حبّ الدنيا والرغبة في الازدياد منها ، ولا شكّ أنَّ هـٰذا الأمر يتفاوت بين الناس فلم تكن نساء رسول الله ﷺ يطمعنَ بزيادة في الدنيا كما يطمع النساء اليوم ، وكما كُنَّ يطمعنَ بالأمس ، بل إنهنَّ طالبنَ الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يكون حالهنَّ كحال أفقر نساء الصحابة ، فكان حرصهنَّ على الكفاف أو ما يُقارب الكفاف.

ونتلمّس من هـٰذه القصة المعاني التالية:

١ ـ حريّة المرأة في الإسلام ، حيث إن نساءه ﷺ كانت تُطالب رسول الله ﷺ بأشياء ويتحزّبنَ ويتجمّعنَ عليه لتحقيقها ، ولو لم يكن عليه الصلاة والسلام قد جرّأهنَّ على ذلك نتيجة احترامه لرأيهنَّ وسماحته في معاملتهنَّ لَمَا قُلنَ تلك المطالب.

٢ ـ احترم الإسلام المرأة بحيث أمر الله عزّ وجلّ رسوله وحبيبه محمداً ﷺ بأن يُخيّر النساء ، فجعل القرار إليهنَّ ، وهـٰذا احترام واضح لرأيهنَّ وتحرٍّ كامل لإرادتهنَّ.

٣ ـ شدّة حبّ نساء رسول الله ﷺ للرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد

---

(١) القرطبي: ج١٨ ـ ص: ١٧٧.
(٢) المرجع السابق.

ضحَّينَ بالدنيا وآثرنَ البقاء معه على شظف العيش على الابتعاد عنه ورغادة العيش ، وجعل الله عزّ وجلّ ذلك قرآناً يُتلى إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً ؛ ليكون عبرة لمن يعتبر ويكون سهماً مُوجّهاً إلى أكباد المستشرقين وذيولهم من أبناء جلدتنا الذين يُحاولون استهداف الإسلام وتحطيم المرأة المسلمة .

* * *

المبحث الحادي عشر

عائشة وحفصة رضي الله عنهما

من طبيعة النساء أيضاً والتي لا تختلف بينهنَّ مهما سمت مكانتهنَّ شدّةُ الغيرة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم: ١] .

ويُروى أنَّ رسول الله ﷺ كان بعد صلاة العصر يدور على نسائه ، فدخل على زينب رضي الله عنها فأتحفته (أي خصّته) بشيء من العسل ، فمكث عندها ، فعلمت بذلك عائشة وحفصة رضي الله عنهما ، فقالت عائشة لحفصة : إذا دخل عليك رسول الله ﷺ فقولي له : يا رسول الله هل أكلت مغافير[1]؟ .

وأنا سأقول له مثل ذلك ، وكانتا تبغيان ألا يجلس عند زينب بنت جحش وذلك من غيرة النساء وغيرة الضرائر ، فدخل ﷺ على عائشة فقالت له ذلك ، فقال : لا إنما شربت عسلاً عند زينب ، ثم دخل على حفصة فقالت له مثل ذلك فقال : لا إنما شربت عسلاً عند زينب ، فقالت له : لعلّها جرَسَت نحْلَهُ الغرقد[2]! .

وكان ﷺ حريصاً ألا يصدر عنه إلاّ ريح طيّبة طاهرة ، فعزم ألا يشرب العسل وحرّمه على نفسه ، فدخل على زينب فقدّمت له العسل فقال : لا حاجة لي به .

ونتيجة لذلك أنزل الله هـٰذه الآيات ووضّح أمر عائشة وحفصة رضي الله

---

(١) المغافير : هي بقلة متغيرة الريح لهاحلاوة ومفردها مغفور .

(٢) جرست : أي أكلت ، والغرقد : هو نبات سيئ الريح يُصدر ريحاً كريح الخمر .

عنهما وأعلمه لصفيّه محمّد ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم : ٣] .

وهناك سبب آخر لنزول هٰذه الآية وهو أنَّ رسول الله ﷺ لم يقبل الزواج بالمرأة التي وهبت نفسها له ؛ كي لا يُثير غيرة نسائه .

وهناك قولٌ ثالث بأنَّ رسول الله ﷺ دخل بمارية القبطية على فراش حفصة ، وكانت حفصة حينئذ في بيت أبيها ، فدخلت عليه فوجدته على ذلك فقالت : ما فعلت ذلك على فراشي من دون فُرُش نسائك إلاّ استهانة بي ! فقال : اكتمي عني ذلك وأقسم ألا يطأ (مارية القبطية) فأنزل الله عز وجل هٰذه الآيات .

والرواية الأولى هي الرواية الأصحّ ، والرواية الثانية هي الرواية الأضعف[1] .

أما ضعف الرواية الثانية ؛ لأنّ التحريم يكون بعد التحليل ، وهبة المرأة نفسها للرسول ﷺ لا يُعتبر حلالاً قد حقّ له ثم قام بتحريمه على نفسه ؛ لأنه لم يقبل الهبة أساساً . وأما الرواية الثالثة فقد قال فيها العلماء : هي رواية مُرسلة ولم ترد في كتب الصحاح[2] .

ونتيجة لذلك يتبيّن لك الطبيعة التي فطر الله النساء عليها من الغيرة بين الضرائر ، وما قيل في الآية التي سبقتها يُقال هنا فلا حاجة للتكرار .

* * *

(١) القرطبي : ج١٤ ـ ص : ١٠٦ .
(٢) المرجع السابق .

المبحث الثاني عشر

خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها

إنَّ هـٰذه المرأة الكريمة من النساء التي أنزل الله عزّ وجلّ في شأنها قرآناً ، فقال عزّ وجلّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

لقد كان لهـذه المرأة شأن عظيم ، وكان السلف الصالح يُقدّرون ذلك الشأن ويُعظّمونه ، ويُروى أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأثناء خلافته مرّ راكباً على حمار ومعه جمهرة من الصحابة ، فاستوقفته عجوز مدّة طويلة وأخذت تتكلّم معه وتعِظُهُ ، فقالت له: يا عمر ، قد كنت تُدعى عُميراً ثمّ قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ، فاتّقِ الله يا عمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن الحساب خاف العذاب ، وهو واقف يسمع كلامها ، فقيل له: يا أمير المؤمنين ، أتقف لهـذه العجوز هـٰذا الوقوف؟.

فقال: والله لو حبستني من أوّل النهار إلى آخره لا زلت إلاَّ للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هـٰذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سماوات ، أيسمع ربّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر[1]؟!.

وقصة هـٰذه المرأة أنها كانت ساجدة ذات يوم وكان زوجها أوس بن الصامت أخو عُبادة بن الصامت ينظر إلى عجزها[2] فأعجبه منها ذلك ، فلما فرغت من صلاتها أرادها فأبت ، فغضب لذلك غضباً شديداً وقال لها: أنت عليَّ كظهر أمّي ، وكان هـٰذا اللفظ يُعتبر في الجاهلية طلاقاً ويُحرّم المرأة على

---

(١) القرطبي: ج١٧ ـ ص: ١٧٥.

(٢) عجز المرأة: مؤخرتها.

زوجها ، فأتت رسول الله ﷺ تشكو إليه أمرها ، وكان رسول الله ﷺ يقول: لا أرى إلاّ أنك قد حرمت عليه ، ومازالت تُجادله ويقول لها: ما أرى إلا أنّك قد حرمت عليه.

وروى الحسن أنها قالت: يا رسول الله ، قد نسخ الله سنن الجاهلية ، وإن زوجي ظاهرَ مني ، فقال رسول الله ﷺ: ما أوحيَ إلي في هـٰذا شيء ، فقالت: يا رسول الله ، أوحي إليك في كلّ شيء وطوي عنك هـٰذا؟! فقال: هو ما قلت لك ، فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله ، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] الآية[1].

ومازالت هـٰذه المرأة تُجادل رسول الله ﷺ وتُراجعه ويُراجعها إلى أن أنزل الله عز وجلّ وحياً فيها ، وتقول عائشة رضي الله عنها: كانت تشكو إلى رسول الله ﷺ أمرها وأنا في نفس الدار[2] وإني لا أسمع كلّ كلامها ، فالحمد لله ربّ العزّة الذي أحاط بكلّ الأصوات ، ومازالت تُراجعه إلى أن تحوّل عنها فأثقل على رسول الله ﷺ ، وكان ذلك في حال هبوط الوحي عليه ، فقالت عائشة رضي الله عنها: اسكتي فإنه يوحى إليه ، وأنزل الله عز وجلّ قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

فعندما نزل الوحي بهـذه الآية الكريمة قال الرسول عليه الصلاة والسلام لزوجها أوس بن الصامت: عليك أن تُعتق رقبة ، قال: والله يا رسول الله لا أجد ما أعتق ، قال: إذن فتصوم شهرين متتابعين ، قال: يا رسول الله ، إن لم آكل في اليوم ثلاث مرّات أخشى أن يعشى بصري[3] ، فقال له: إذن تُطعم ستين مسكينا ، فقال: فأعنّي على ذلك ، فأعانه ﷺ على ذلك ، وهنالك روايات أخرى تختلف قليلاً في الكفّارة التي أوجبها ﷺ على أوس بن الصامت وليس المقام لذكرها هنا[4].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) مع العلم أن دار رسول الله ﷺ كانت غرفة صغيرة.
(٣) عشى البصر: أي أصبح لا يرى في الظلمة.
(٤) المرجع السابق.

ومن خلال ما تقدم يتبيّن لك إكرام الله عزّ وجلّ للمرأة ، وإكرام الرسول ﷺ للمرأة ، وبالتالي فهي معاملة الإسلام للنساء ، فإنها امرأة دخلت على رسول الله ﷺ واستفتته في أمر كان يُعتبر سائداً وواضحاً في عُرفِ الناس ، فقضى لها عليه الصلاة والسلام بما يقضي به العُرف؛ لعدم وجود النصّ في ذلك ، فعادت تُجادله وهو يقول: لا أرى إلاّ أنك قد حرمت عليه ، ثمّ عادت تراجعه وتُناقشه وتقول: إنما أشكو همّي إلى الله ولا أشكوه إلى رسول الله ، وهو ﷺ يبتسم في وجهها ويُنصت إليها ، حتّى أنَّ الله عزّ وجلّ سمّى هـٰذه السورة بسورة المجادلة ، نسبة إلى خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها وكثرة جدالها لرسول الله ﷺ ، فانظر إلى الكرامة التي حباها الإسلام للمرأة التي وقفت من رسول الله ﷺ هـٰذا الموقف وأنزل الله عزّ وجلّ في شأنها قرآناً.

* * *

المبحث الثالث عشر
امرأة لوط ونوح عليهما السلام

لا شك أنَّ القرآن الكريم أورد قصص الكثيرات من النساء الصالحات المؤمنات الصدّيقات التقيّات ، ولكن النساء لَسْنَ كلّهنّ على هـٰذه الشاكلة ، بل هناك نساء سيّئات طاغيات كافرات مائلات مميلات ، ونتيجة لذلك أحببت أن أقدم النموذج الصالح الذي أورده الله عزّوجل في كتابه من النساء الصالحات ، ثمّ أختم هـٰذا الفصل بالنموذج الطالح وهو نموذج النساء السيّئات .

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم ١٠] .

ولقد كانت امرأة نوح عليه السلام تُدعى بـ (والهة) وكانت امرأة لوط عليه السلام تُدعى بـ (والعة) وهـٰذه رواية مُقاتل ، وقال الضحّاك : إنَّ امرأة نوح عليه السلام كانت تدعى (واهلة) وامرأة لوط عليه السلام كانت تُدعى (والهة)[1] .

قال الضحّاك : لقد كانت امرأة نوح وامرأة لوط تخونان هـٰذين النبيّين العظيمين ، وكانت الخيانة هي خيانة العقيدة ، فكانت امرأة نوح عليه السلام تخرج إلى الناس وتقول : إنَّ نوحاً رجل مجنون ! .

وكانت امرأة لوط عليه السلام تُشير إلى الناس وتخبرهم إذا كان عند لوط عليه السلام أضياف من أجل أن يأتي قومها الشاذّون جنسيّاً فيقعوا بأضيافه .

---

(١) القرطبي : ج١٨ ـ ص : ١٣١ وما بعدها .

ولا يُقصد بالخيانة الخيانة الجنسيّة؛ لأنَّ الله عزّ وجلّ قد عصم أنبياءه ورسله عن تلك القاذورات ، إنما الخيانة هي خيانة العقيدة ، فكانتا مشركتين أو منافقتين ، وكانت امرأة لوط عليه السلام تُشعل النار وتُصدر دخاناً إشارة إلى قومها بأنّ زوجها لديه أضياف ، وبالرغم من علاقة الزواج القائمة بين هٰذين النبيّين الكريمين وهاتين المرأتين الكافرتين فإنّ هٰذه العلاقة لم تشفع لهما من عذاب الله عزّ وجلّ فأدخلهما النار مع الكفرة والمجرمين.

وقد رُوي أنَّ كفّار قريش كانوا يقولون مستهزئين: إنَّ محمداً ﷺ سيشفع لنا لأننا من قبيلته ، فذكر الله هٰذا المثال؛ ليعلم هؤلاء الفجرة أنهم لا تشملهم شفاعة ولا تدفع عنهم العذاب قربى[1].

ولا يُقصد بالخيانة الخيانة الجنسيّة ، لأنَّ ذلك لا ينطبق على زوجات الأنبياء عصمة للأنبياء وكرامة لهم ، بل الخيانة كما تقدّم هي خيانة العقيدة وخيانة النميمة ، فكفر امرأة نوح عليه الصلاة والسلام بنبوّة زوجها نوح وخروجها إلى الناس وسخريّتها من زوجها بوسمه بأنه مجنون ، وتحايل امرأة لوط عليه الصلاة والسلام عليه وإخبار قومها الشاذّين جنسيّاً بأنّ لديه أضيافاً ليأتوا ويقعوا في أدبارهم ، كلّ ذلك يُعتبر من الخيانات الكبيرة في حقّ هؤلاء الرسل الكرام ، ونتيجة لخسّة هؤلاء النسوة مسّهم الله بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، أما عذاب الآخرة فهم في نار جهنّم يتلظّون فيها ويتعاوون عواء السباع ، وأما عذاب الدنيا فالصيحة التي وقعت على قوم لوط عليه السلام وأصابت زوجه ، والغرق الذي أصاب امرأة نوح عليه السلام مع قومها الأشرار ، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٢ ـ ٨٣].

فيقول الله عزّ وجلّ إنه أنجى لوطاً عليه الصلاة والسلام وأهله إلاّ امرأته الكافرة التي كانت من الغابرين ، وقيل في «الغابرين»: إنها كانت من النساء

---

(١) المرجع السابق.

المعمّرات ، وقيل: إنها كانت من الذين مُحِقوا ومضوا في سبيل الهلاك والدمار ، ويُقال: إنها من ألفاظ الأضداد[1].

وترى خُبث امرأة لوط عليه السلام عظيماً عندما تعلم الممارسات الإجرامية التي كان يُمارسها قوم لوط عليه السلام ، فكانوا يتربّصون في الطرقات لعابر السبيل ، فيهبطون عليه ويسلبونه ماله وممتلكاته ثم يغتصبونه ويقعون به حتّى يخرج منه الدّم ، لا يردعهم رادع ولا يؤثّر فيهم كلام واعظ ، وكأن نفوسهم الظامئة للإثم لم تَرْوِها تلك الذنوب وأفئدتهم المتعطّشة إلى الإجرام لم تكفّها هٰذه القبائح!!.

ومكث فيهم لوط عليه السلام يُعالج شرورهم ويؤدّبهم ويعظهم ولكنهم شاردون لا يبالون ، بل أخذوا ينظرون إلى لوط وأهله على أنهم خطر وبيل في مدينتهم، وعليهم الخلاص منه وإخراجه وأهله من المدينة ، ولا تخفى الآيات القرآنية التي ذكرها القرآن الكريم حينما جاؤوا يقتحمون عليه داره ، وكانت الملائكة لديه ولم يعلم بعد بأنَّ زوّاره ملائكة، فخشي عليهم وعرض على قومه أن يتزوّجوا النساء فهنّ أطهر لهم ولكنهم أبوا واستكبروا ، وتستطيع أن تُقدّر خيانة هذه المرأة من خلال هذه الصورة الواضحة: مجرمون يستوّرون على بيت زوجها وبناتها الأسوار ، ويقتحمون عليهم أستارهم؛ ليقعوا بضيوف زوجها ، وهي مسرورة بعملهم بل ومؤيّدة ومُشجّعة ومُخبرة لهم ، لقد بلغت هٰذه المرأة من الخسّة والخيانة الشيء الكثير ، ولكن ليس بعد الكفر ذنب كما يُقال.

وفي نهاية المطاف يتبيّن لك أنّ هناك نساء قد بلغنَ من الشرّ الحدّ البعيد ، ولم يؤثّر بهم الوعظ والتنبيه ، بل ولم يتأثّروا بالمعجزات التي كانت تجري على أيدي أزواجهن من الأنبياء ، فالتي تُعاشر نبيّاً من أنبياء الله عزّ وجلّ يُوحي إليه ليلاً ونهاراً وتُساكنه في داره وتأكل من طعامه وتبيت إلى جواره في فراشه ثمّ لا يلين قلبها إلى الحقّ ، تكون أشدّ الكفار كفراً ، وأقساهم قلباً وأحقّهم بنقمة الله وسخطه.

* * *

(١) القرطبي: ج٧ ـ ص: ١٥٧.

المبحث الرابع عشر

امرأة العزيز تراود فتاها

وإليك نموذج آخر من النساء السيّئات اللواتي دفع بهنَّ الشبق الجنسي إلى مراودة نبيّ كريم عن نفسه؛ ليقع في الفاحشة وفي ذلك قال عزّ وجلّ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٤].

والمراودة هي الطلب برفق ، فقد راودته عن نفسه حيث إنها تقرّبت إليه ، ودَعَتْه إلى أن يقع بها ، وحاولت أن تُثير مكامن الفحولة والذكورة والغريزة في جسده ، وغلّقت الأبواب؛ والتغليق هنا يوحي بأنه تغليق مبالغ فيه ، وقيل: إنها سبعة أبواب ، وقالت: هيت لك ، قيل: إنها تعني: تقدّم إليَّ وهلمَّ وبادِر ، وقيل: إنها بالهمز وتعني: إني قد تهيّأت لك واستعددت للقائك ، قال النحّاس:

فيها سبع قراءات ، فمن أجَلّ ما فيها وأصحّه إسناداً ما رواه الأعمش عن أبي وائل قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ: هَيتَ لكَ ، قال: فقلت: إنّ قوماً يقرؤونها: هِيتَ لكَ ، فقال: إنما أقرأ كما علمت ، قال أبو جعفر ، بعضهم يقول: عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ ولا يبعد ذلك؛ لأنّ قوله: إنما أقرأ كما علمت يدلّ على أنه مرفوع ، وهـٰذه القراءة بفتح التاء والهاء هي الصحيحة من قراءة ابن عبّاس.

وقال عكرمة: ومنها هِئتُ لك، وهي مستغربة عند العرب، ولكنها مستعملة عند البصريين[1].

فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أستعيذ بالله عزّ وجلّ أن أقع في هٰذه الفاحشة، ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ اختلف هنا العلماء في ذلك فقالوا: إنّ ربّه هو سيّده العزيز الذي أحسن مثواه وأكرمه ولم يُهِنهُ، فليس من اللائق أن يُقابل الجميل بالإساءة والإحسان بالتعدّي والظلم.

وقيل: إنما قصد بربّه الله عزّ وجلّ الذي رعاه واصطفاه من بين إخواته نبيّاً يوحى إليه، فليس من العدل والتقوى أن يقوم بهٰذا الفعل الذي هو من أفعال الجاهلين والظالمين.

وفي الخبر أنها قالت له: يا يوسف، ما أحسن صورة وجهك! قال: في الرحم صَوَّرني ربِّي، قالت: يا يوسف، ما أحسن شَعرَكَ! قال: هو أوّل شيء يبلى منّي في القبر، قالت: يا يوسف، ما أحسن عينيك! قال: بهما أنظر إلى ربي، قالت: يا يوسف، ارفع بصرك فانظر إلى وجهي، قال: إنّي أخاف العمى في آخرتي، قالت: يا يوسف، أدنو منك وتتباعد منّي!. قال: أريد بذلك القُربى من ربّي، قالت: يا يوسف، القيطون[2] فرشته لك فادخل معي، قال: القيطون لا يسترني من ربّي، قالت: يا يوسف، فراش الحرير قد فرشته لك قم فاقضِ حاجتي، قال: إذن يذهب من الجنّة نصيبي، إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها إلى أن همّ بها. وقد ذكر بعضهم أنه مازالت النساء يملنَ إلى يوسف ميلة شهوة حتّى نبّأه الله فألقى عليه هيبة النبوّة فشغلت هيبته كل من رآه عن حُسنِه[3].

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف: ٢٤] قال أبو حاتم: كنت أراجع في غريب القرآن أبا عبيدة، فقلت له: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ

---

(١) القرطبي: ج٩ ـ ص: ١١٠.
(٢) القيطون: هو الفراش الفاخر الناعم.
(٣) المرجع السابق.

وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فقال: إنّه من قبيل التقديم والتأخير وهي: لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها، وعلى هٰذا التأويل يكون يوسف عليه السلام لم يهمّ بها أصلاً ولم يبدأ بأي نوع من أنواع المقدّمات[1].

وقيل: همَّ بها: تمنّى في نفسه أن تكون زوجة له، وقيل: هَمَّ بها أي: هَمَّ بضربها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: لولا أنه قد خشي أنه إن ضربها فيُفسّر الأمر على أنه أرادها على نفسها فأبت فقام بضربها ليُرغمها على الفاحشة، وقول جمهور المفسّرين: إنه هَمَّ بارتكاب الفاحشة بها وحلّ سرواله، إلى هٰذا القول ذهب القشيري وابن الأنباري والنحّاس والماوردي وغيرهم.

قال ابن عبّاس: حل السروال وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: استقلت على قفاها وقعد بين رجليها ينزع ثيابه، وقال سعيد بن جبير: أطلق تكّة سراويله، وقال مجاهد: حلّ السراويل حتّى بلغ الأليتين وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، قال ابن عبّاس: ولما قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣] قالوا: والانكفاف في مثل هٰذه الحالة دليل على الإخلاص وهو أعظم للثواب[2].

وإني هنا أتعجّب من بعض المفسّرين الذين يُحاولون تحميل النصّ ما لا يحمل والالتفاف على حقيقته، فقوله تعالى واضح في ذلك: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ و(لولا) بطبيعة الحال هي حرف امتناع لوجود.

واختلف المفسّرون في رؤيته لبرهان ربّه، فقال البعض: لقد رأى أباه يعقوب يعضّ على إصبعه، وقال آخرون: لقد رأى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقيل غير ذلك، ونتيجة لعصمة هٰذا النبيّ الكريم الشريف ـ عليه السلام ـ تراجع عن هٰذا العمل وابتعد

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

عنه وفرّ منها هارباً كما يفر الإنسان من الوحش الضاري والسبع الهائج ، فجاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٥] .

وعندما فرّ يوسف عليه الصلاة والسلام من هـٰذه المرأة الشبقة[1] اتّجه نحو الباب ، وأخذت تُسابقه نحو الباب ؛ كي تمنعه من الخروج ، وأثناء هـٰذه العملية كان قد سبقها ، فقبضت على قميصه من مؤخّرة القميص ، وفي هـٰذه الأثناء كان زوجها قد اقترب من الباب ، فرأى نوعاً من التسابق الذي يوحي بعدم الطمأنينة ، بل والذي يؤكّد على حصول شيء غير أخلاقي ، ونتيجة لخبث هـٰذه المرأة ودهائها بادرت وقالت لزوجها : كيف تصنع بالذي أراد أن يسطو على عرضك ويزني بأهلك؟ . أليس من العدل أن يُزجَ في السجون وظلماتها وأن يُمسّ بعذاب أليم ونكال شديد؟ .

والقرآن يُتابع هذه القصّة فقال عزّ وجلّ : ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ٢٦ ـ ٢٧] .

فعندما سمع العزيز الجَلَبَة التي كانت خلف الباب وشاهد التسابق وشاهد الآثار على الوجوه ، أراد أن يستوثق من الحقيقة ، فشهد شاهد من أهلها ، وفي هـٰذا أربعة أقوال :

١ ـ إنه صبي نطق في المهد .

٢ ـ إنّ قَدَّ القميص بحدّ ذاته يُعتبر شاهداً وقرينة على القضية ، وهو من المجاز اللغوي السليم .

٣ ـ إنه مخلوق ليس من الإنس وليس من الجنّ ، وهـٰذا كلام ضعيف ويدحضه قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ فهل كانت هـٰذه المرأة ليست من الإنس أو الجنّ؟! .

---

(١) الشبقة : المتلهفة للجماع .

٤ ـ إنه رجل حكيم كان من أهلها وكان مستشاراً لهـذا الوزير وذا رأي وحكمة وفطنة فأشار بهـذا الرأي[١].

وعندما تبيّنت الحقائق وظهر أنّ (زليخة) امرأة العزيز هي التي راودته عن نفسه وسابقته إلى الباب ، وكان قميصه قد قُدَّ من دبر أقرّ ذلك الوزير الديّوث بأنّ زوجته هي التي أرادت الفاحشة ، وتوجّه ليوسف قائلاً: يوسف ، أعرض عن هـٰذا وتجاوز عن هـٰذه الحادثة ولا تُخبر بها أحداً ، والتفت إلى زوجته الخائنة وقال لها: إنك من معشر النساء وإنّ كيد النساء عظيم ، وعليك أن تستغفري لذنبك ، ثمّ التفت وتابع طريقه وكأن شيئاً لم يكن!!.

وسبحان الله إني لأرى أنّ هـٰذه الظاهرة ظاهرة انتشار مشاعر الخنازير تنتشر كثيراً في المجتمعات الأرستقراطيّة ، ويبدو أنّ هـٰذا الحال ممتدّ من القديم إلى الزمن الحاضر ، وذلك لا ينفي أنّ هـٰذه الظاهرة موجودة في الطبقات الشعبية ، ولكنها تكاد تكون قاعدة عامّة في الطبقات التي تُسمّي نفسها بأنها رفيعة!.

ويتبيّن لك مما تقدّم أنّ هـٰذه المرأة كانت امرأة خائنة لزوجها ولا يُقبل منها حجّتها بشدّة جمال يوسف عليه الصلاة والسلام؛ لأنّ المرأة الطاهرة إذا أحسّت من نفسها الانجراف نحو الفتنة أبعدت أسباب الفتنة ، كان من السهل عليها أن تُبعد يوسف عليه السلام عن ناظرَيها ، وينتهي هـٰذا الصراع النفسي الجسدي ، ولم تكتفِ بأنها باذخة خائنة ، بل كانت كاذبة مفترية افترت بُهتاناً على يوسف عليه الصلاة والسلام ، ولم تتوقّف عند ذلك بل أصرّت على متابعة إغوائه ، وكان إصرارها علنيّاً وليس سريّاً ، فقد جهرت بذلك أمام نسوة المدينة من الطبقات الأرستقراطيّة ذوات الشرف الرفيع ، واللواتي شاركنها في هـٰذا الشبق وفي هـٰذه الرغبة ، ويبدو أنها لا تُبالي بزوجها ولا تُقيم له وزناً ، ولا سيّما أنها تابعت مسيرتها في الغواية والمراودة ، بل وأعلنت هـٰذه المسيرة على الملأ ،

---

(١) المرجع السابق.

فرحم الله يوسف عليه الصلاة والسلام كم عانى من هـٰذا المجتمع الذي لا يُقيم للشرف وزناً.

وبعد أن انتشر الخبر في المدينة وتحدّثت النساء كعادتهنّ بغواية هـٰذه السيدة الرفيعة بخادمها، ازداد غيظها وجمعتهنّ لتُبرّر لهنَّ سبب شبقها بهـذا الشاب، ولتُعلن على الملأ وفي قمّة مجتمع السادة حينئذٍ أنها مصرّة على ملاحقته ليقع في عرضها!

وما كان من هؤلاء النسوة إلاّ أن باركنَ تصرّفها ووضعنَ لها الطاعة والإذعان، وأخذنَ يتسابقنَ معها في سبيل الحصول على ذات الغاية الدنيئة!.

ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣٠ ـ ٣١].

وقد ورد أنّ الخبر تسرّب عن طريق امرأة خبّاز العزيز، وقيل: تسرّب عن طريق ساقية العزيز، وقيل: إنه تسرّب عن طريق حاجب العزيز، وشاع هـٰذا الخبر في المدينة.

وروِيَ أنَّ يوسف عليه الصلاة والسلام كان مملوكاً للعزيز فاستوهبته من زوجها، فقال: ما تصنعين به؟ قالت: أتّخذه ولداً، ثمّ اهتمّت به إلى أن أصبح شابّاً يافعاً وفي نفسها منه الشهوة، فأخذت تتكشّف وتتزيّن له، وكان يعصمه الله، إلى أن راودته بشكل واضح وصريح، وتابعت النسوة قائلات: إنه ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أي: إنه قد حرق قلبها من شدة الحبّ والهوى والهيام، والشغاف هو غشاء القلب، ووجّهنَ إليها اللوم كعادتهنَّ وكما هو شائع في أيامنا هـٰذه، فترى أنَّ جمهرة الراقصات توجّه إحداهنَّ اللوم لصاحبتها وتُشكّك في أخلاقها وهنَّ في البغاء سواء!.

فلما علمت امرأة العزيز بهـذا الكيد جمعتهنَّ وأعتدت لهنَّ متكأً؛ وهو المجلس الفاخر المليء بالأصناف من الطعام الذي يؤكل للترف ولا يؤكل

لإمساك الرمق ، وقيل: هو العسل ومجموعة من الفواكه الثمينة ، وأمرت خادمتها فقالت لها: إذا قلت لك: ادعي (إيلاً)[1] دعوت خادمي يوسف ـ عليه السلام ـ ، فلمّا رأينَهُ أكبرنه وعظّمنه وقطّعنَ أيديهنَّ وهنَّ لا يشعرنَ! وقد رُويَ أنهنَّ أصابهنَّ المني ، وقيل: المذي ، وقيل: حضن في مجلسهنّ[2] ، وذكر وهب بن منبّه: أنهنَّ كُنَّ أربعين امرأة[3] ، وورد أنهنَّ أخذنَ يراودنَ يوسف عن نفسه الواحدة تلو الأخرى ويتخفّينَ عن بعضهنَّ بذلك العمل ، وأخذ بعضهنَّ يُقنِعنَ يوسف ليقع بامرأة العزيز؛ كي يكون سبيلاً وممهداً لوقوعه بهنَّ بعد ذلك[4].

وفي نهاية المطاف يتبيّن لك حال امرأة العزيز وحال النسوة اللواتي شاركنها في هـٰذه الرغبة ، فقد كانت تتجمّل وتتعرّى وتتزيّن ، ثمّ راودته بشكل مباشر ثمّ تسابقت وإياه إلى الباب ، ثمّ ادّعت عليه افتراءً أنه راودها عن نفسها ، ثمّ جهرت بذلك أمام النسوة وضربت بشرف زوجها عرض الحائط ، وبعد أن ازداد الإغراء على يوسف عليه السلام دعا ربّه فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ويبدو من هـٰذه الآية استمرارها في المراودة والإغراء ومشاركة هؤلاء النسوة في هـٰذا العمل ، وذلك واضح من قول يوسف عليه السلام: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ وكانت المصيبة في (زليخة) وتعمّمت المصيبة إلى جميع نساء الطبقة الأرستقراطية[5] ، فهـذا نموذج من المرأة السيّئة في القرآن الكريم.

ولا شكّ أنّ (زليخة) في نهاية المطاف أقرّت بأنها هي التي راودته عن نفسه بعد أن استدعاها الملك وسألها عن حاله ، وذلك جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ

---

(١) إيل: هو الإله باللغة القبطية.

(٢) المني والمذي: سائلان معروفان يُفرزان عند الجماع وعند الشهوة.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الأرستقراطية: هي الطبقة الثرية التي تمتلك المال والسلطة ، وتترفع عن الشعب.

حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[1] [يوسف: ٥١] ولكن بعد الابتلاءات والفتن التي تعرّض لها يوسف عليه الصلاة والسلام ، وبعد مكوثه في السجن وغيابه بضع سنين.

* * *

(١) حصحص: بان وظهر.

المبحث الخامس عشر

أم لهب

كانت أم لهب ـ لعنة الله عليها ـ تُعيّر رسول الله ﷺ بالفقر ، وكانت امرأة شديدة البخل ، حيث إنها تحمل الأثقال الكثيرة من الحطب على ظهرها ولا تستأجر خادماً لذلك مع شدّة ثرائها ، وكانت تضع الشوك والقاذورات في الليل على طريق رسول الله ﷺ ، قال ابن عبّاس: كان النبي ﷺ يطؤه كما يطأ الحرير ، وقال مرّة الهمداني: كانت أم جميل تأتي كل يوم بمجموعة كبيرة من الحسك ، فتطرحها على طريق المسلمين ، فبينما هي حاملة ذات يوم حزمة أعيت ، فقعدت على حجر لتستريح ، فجذبها المَلَكُ من خلفها فأهلكها ، وقال سعيد بن جبير: حمَّالة الخطايا والذنوب[1].

وقيل: إنما كُنّيَت بحمّالة الحطب؛ لأنها كانت تحمل الحطب والشوك والحسك فتضعه في طريق رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقيل: إنها تحمل الحطب على عاتقها في نار جهنّم والعياذ بالله ، وأما قوله تعالى: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥] فقالوا: المسد هو حبل من الليف ، وقال آخرون: حبل من الصوف ، وحبل من الوبر ، وحبل من نبات ينبت في اليمن ، وقيل غير ذلك.

وقد رُوِيَ أنها كانت تحتطب وتربط الحطب في حبل في رقبتها فخنقها الله فيه ، وقيل: إنّ الحبل هو سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً تدخل من فِيها فتخرج من دبرها يوم القيامة ، وقيل: كان لها حبل من الودع تضعه في عنقها ، وقيل: إنما هو حبل من المجوهرات ، فأقسمت باللات والعزّى أن تُسخّر هـٰذا الطوق الثمين في عداوة رسول الله ﷺ ، وتُنفق مالها في سبيل إيذائه.

---

(١) القرطبي: ج٢٠ ـ ص: ١٦٣.

وورَدَ أنَّ أم لهب خنقها الله عزّ وجلّ بحبل كان في عنقها تحتطب به ، وأما أبو لهب ـ لعنة الله عليه ـ فقد رماه الله بالعدسة[1] بعد وقعة بدر بسبع ليالٍ ، بعد أن شجّته أم الفضل ، وذلك أنه جاء رجل يُخبر عمّا وقع في بدرٍ ، فقال له أبو لهب: أخبرني خبر الناس ، قال: نعم ، والله ما هو إلاّ أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا ، يضعون السلاح منا حيث شاؤوا ، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بُلق[2] ، لا والله لا تُبقي منا ـ يقول ما تُبقي شيئاً ـ قال أبو رافع: وكنت غلاماً للعباس أنْحتُ الأقداحَ في صُفَّة زمزم وعندي أم الفضل جالسة ، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر فقلت: تلك والله الملائكة.

قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة منكرة ، وثاوَرْتُه[3] ـ وكنت رجلاً ضعيفاً ـ فاحتملني فضرب بي الأرض ، وبرك على صدري يضربني ، وتقدّمت أم الفضل إلى عمود من عُمُد الحجرة فتأخذه وتقول: استضعفتَهُ أنْ غاب عنه سيّده! وتضربه بالعمود على رأسه فتفلقه شجّة منكرة ، فقام يجرّ رجليه ذليلاً ، ورماه الله بالعدسة فمات ، وأقام ثلاثة أيام لم يدفن حتى أنتَنَ ، ثم إن ولده غسلوه بالماء قذفاً من بعيد مخافة عدوى العدسة ، وكانت قريش تتقيها كما يتقى الطاعون ، ثم احتملوه إلى أعلى مكّة فأسندوه إلى جدار ثم ردموا عليه الحجارة[4].

ومن خلال ما تقدّم يتبيّن لك قبح فعال هـٰذه المرأة التي عادت رسول الله ﷺ ، ولقد رُوِيَ أنها أقسمت بعد أن نزلت هـٰذه الآية الكريمة أن تضرب رسول الله ﷺ بحجر فتقتله ، فأقبلت إلى جوار الكعبة وكان رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه جلوساً عندها ، فقال أبو بكر: يا رسول الله ، هـٰذه أم لهب قد أتت تحمل حجراً تُريدك ، فتبسّم ﷺ وقال: الله يمنعني منها لن تراني ، فأخذت تنظر إلى أبي بكر وتنظر إلى ما حوله ثمّ قالت لأبي بكر:

---

(١) العدسة: نوع من الأمراض التي تشبه مرض الطاعون يخشاها أهل مكة.
(٢) البلق: سواد وبياض.
(٣) ثاورته: قمت إليه للمبارزة.
(٤) المرجع السابق.

أبلغ صاحبك بأني أريد أن أقذفه بهـذا الحجر إن رأيته ، وولّت! فقال ﷺ لأبي بكر: ألم أقل لك يا أبا بكر: إنها لن تراني ، والله يعصمني منها[1]؟

فكان هـٰذا النموذج السيئ للمرأة ، ومن شدّة سوء هـٰذا النموذج ذكره الله عزّ وجلّ في قرآن يُتلى إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، ومازلنا نلعن أبا لهب وأم لهب إلى أن يشاء الله ونلقى وجهه على الطاعة والإيمان إن شاء الله تعالى.

ومن الأمور الجميلة التي لا يُمكنني أن أتجاوزها في هـٰذا المقام الإعجاز الغيبي في هـٰذه الآية؛ فلقد أخبر الله عزّ وجلّ أنَّ أبا لهب سوف يكون في نار جهنم ، وأنَّ زوجته سوف تكون في نار جهنّم ، وسوف يموتان على الكفر ويُحشران إلى السعير ، وما أهون أن يقف أبو لهب بين الناس فيقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنَّ محمداً رسول الله ، ها أنا آمنت بالله ربّاً وبمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً ، فما بال القرآن يُغالط نفسه؟!.

ولكن الله علاّم الغيوب وعالم الغيب والشهادة علم أنّ أبا لهب لن يدخل في الإسلام ، وسوف يستمرّ على كفره إلى أن يموت كافراً هو وزوجته الملعونة ، وهـٰذا نموذج من نماذج الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم ، وهي نماذج كثيرة ليس المقام هنا لذكرها.

وفي نهاية المطاف أقول: لقد حرصت أن أبيّن السور القرآنية التي تكلّمت عن المرأة وبدأت بالنساء الصالحات كرامة لهنَّ وشرفاً وتعظيماً لطهارتهنَّ ، ثمّ انتهيتُ بهؤلاء النسوة الفاسقات والكافرات ، وعلى المرأة أن تختار سبيلها ودربها ، إما أن تكون مع الصالحات في جنّات عرضها كعرض السماوات والأرض ، وإما أن تكون مع الفاسدات الكافرات في نار الله عزّ وجلّ التي لها سبع طبقات ، فعليها أن تختار إما الجحيم ، وإما السعير ، وإما جهنّم ، وإما الهاوية ، وإما سقر ، أو اللظى ، أو الحطمة.

* * *

---

(١) المرجع السابق.